الجمهوريـة الجزائـريـة الديمقراطيـة الشعبيـة
République Algérienne Démocratique Et Populaire
وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف. ميلة

معهد الآداب واللغات **قسم اللغة والأدب العربي**

المرجع : .....

التركيب اللغوي في قصيدة الطلاسم

لإيليا أبي ماضي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي

تخصص: لغة عربية

إعداد الطالبين:
- نسرين بن زاوية
- آحلام دخموش
- هاجر حاسي

إشراف الأستاذ:
سليم مزهود

السنة الجامعية: 2016/2015م

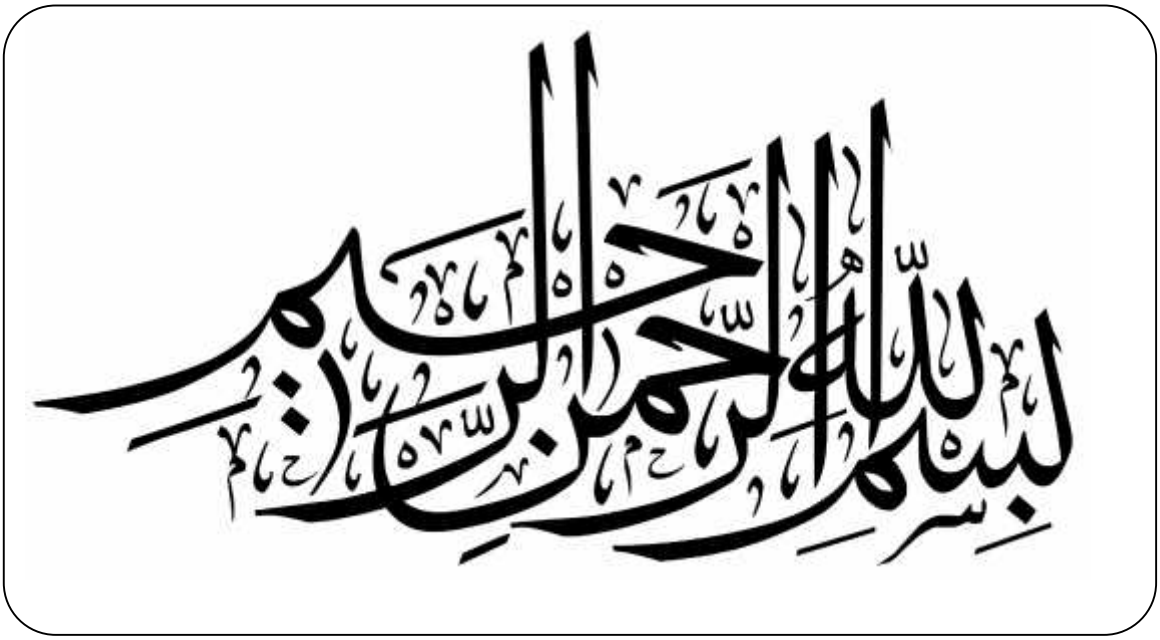
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

إن الشكر لله عظيما والحمد لله كثيرا الذي أعاننا في هذا البحث

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"ما من أحد صنع إليكم معروفا فجازوه فإنْ عجزتم عن مجازاته فادعوا له حتى تعلموا أنكم شكرتم فإن الشاكرَ يحب الشاكرين"

يسرنا أن أتقدم إلى أستاذنا المشرف: "**سليم مزهود**" بخالص الشكر ووافر الامتنان على ما بذله من جَهْدٍ وتحمّل منْ مشقة في سبيل تعبيد طريق النجاح لنا

جعله الله مصباحا من مصابيح العلم.

ونحن العارفون بفضل أستاذنا "**سليم**" العاجزون عن أن وفي حقَّ شكره، فحررنا هذه السطور بلسان الإمكان لا بقلم البيان سائلين الله أن يجعله وإيّانا من أهل القرآن وأنْ يرزقه وإيانا ووالدينا وأحبابنا الفردوس الأعلى من الجنان.

إهداء

إلى بهجة روحي وزهرة عمري

إلى اللمسة المباركة الدافئة ترافقني في دربي

إلى التي اسمها منقوش في قلبي

إليك يا أحلى وأول كلمة نطقت بها في حياتي

إليك أمي؛ أطال الله في عمرك.

إلى الذي كدّ واجتهد في غسق الليل ووقدة النهار ليعبِّد لي طريق النجاح،

إلى من علمني العطاء دون انتظار

إلى من أحمل اسمه بكل افتخار

إليك أبي؛ أطال الله في عمرك.

إلى إخوتي الذين كانوا لي نعم الإخوة وأستاذي المشرف.

إلى من ساندني في كل كبيرة وصغيرة

إلى صديقتي الغالية على قلبي مونية سحرواي.

وإليك يا منير

أهدي هذا العمل المتواضع

نسرين

إهداء

ما أصعب أن يجمع المرء أحباءه في سطور ، وما أكثرها صعوبة أن يذكر حبيبا وينسى آخر . لكن واجب الإهداء يتقدم على ذلك كله.

أهدي جهدي إلى من أحبهم قلبي ونطق بهم لساني واهتز لهم كياني

إلى من أحبها الرحمن وأنار قلبها بالقرآن

واشتاقت لها فردوس الجنان ووهبها الله جبالا من الفرقان وأكرمها الرحمن بسور من القرآن. إليك أمي الغالية؛ أطال الله في عمرك.

إلى من كلله الله بالهيبة والوقار

إلى من علمني من دون انتظار ، إلى من أحمل اسمه بكل افتخار

وستبقى كلماته نجوما أهتدي بها في اليوم والغد وإلى الأبد

إليك أبي الغالي؛ أطال الله في عمرك.

إلى من كانوا دليلي الحياة ومن شاركوني الذكريات

إلى كل من يسعد لسعادتي وألم لأحزاني إخوتي أطال الله في عمركم وحفظكم. وإلى أستاذي المشرف سليم.

إلى من صادفتهم راحلتي إالحياة ورزقني الله برؤيتهم

فكانوا سندي طوال مشواري الجامعي أتقاسم معهم جوانب الحياة:

أميرة، حسام، عبد الله وفوزية

إلى لجين جعلها الله تاجا فوق رؤوس والديها وحفظها الله لهم

وأحسن رعايتها . وإلى كل من يتمنى لي الخير

أحلام

إهداء

إلى الذيْن مهّدا لي طريق الخير والصلاح، فاقتبست من نورهما ما يوصلني إلى برّ الأمان والنجاح

إلى الوالدين العزيزين أمي وأبي الغاليين أطال الله في عمرهما وبارك فيهما.

إلذين يبعثون الأمل والابتسامة والحنان إلى النفس

إلى إخوتي جميعهم

إلى صديقاتي العزيزات على قلبي.

وإلى أستاذي المشرف.

هاجر

مقدمة

مقدمة:

أثارت قصائد إيليا أبو ماضي جدلاً منقطع النظير على مستوى التجديد في العبارة الشعرية والحركة الرومانطيقية في الشعر العربي الحديث وشعر المهر بصفة خاصة، وعلى مستوى المضامين الإنسانية التي تنماز عن غيرها بروعة الأفكار ومدى تغلغلها في عاطفة المتلقي، تمسُّ شغافَ قلبه، وعلى المستوى الجمالي في شعرية رفيعة، هذا فضلاً عن بساطة الشاعر المحببة إلى النفس، ودعوته إلى الحياة والتمتع بمباهجها وإثارة الأسئلة حولها، لتثير عقل الإنسان المتدبر في الكون ومظاهره.

لقد أعطي للإنسان قوة التفكر والتدبّر والتأمّل يستفيد منها لمعرفة الحياة وجوانبها؛ فالتأمل منطلقه ذاتي وليس محدودا في إطار زماني أو مكاني، لأن المجهول الذي يفرض هذا التأمل يبقى سائرا عبر الزمن، فكلما اكتشف العقل خبايا شيء إلا جهل آخر، بل إن ما كشفه في الشيء من خبايا هو حقيقة نسبية تقبل التغير.

إن التأمل هو ثمرة التفكر العميق يَنْمَازُ به الإنسان بين المخلوقات الأخرى. ويؤدي دوراً بارزاً في المجالات جميعها بما فيها العلمية والأدبية، فما بالك بمظاهر الكون من حوله وسر الخلق والوجود..

لأجل ذلك جاءت هذه القصيدة: "الطلاسم" تخبر عن حيرة الشاعر في خلقه ووجوده وما رسمه في طريقه، أهو من تلقاء نفسه أم مفروض عليه وفيه سائر باللاشعور، من أي جاء إلى أين يمضي ويسير أم به الحياة تسير، وكثير مما يخصه حياته لا يزال مجهولا لديه كما جُهِلت لديه كثير من مظاهر الكون.

إن قصيدة (الطلاسم) أكثر قصيدة شعرية حديثة تثير التساؤلات والحيرة بشكل ملفت للانتباه، إلى درجة اكتنفت فيها بالغموض الكثيف في المعنى نتيجة خوضها في الغيبيات بعيدا عن تعليمات الوحي الذي بيّن جزءاً منها.

والقصيدة برغم كلماتها البسيطة الرائعة إلاّ أنها عميقة المعنى، فما بين سطورها موغل في الفلسفة يحمل أبعادا وجودية؛ إنها أروع إبداعات إيليا أبي ماضي في معانيها وانسجامها واتساقها بين بعضها البعض في الحروف والكلمات والجمل والأبيات.

ويزداد هذا الموضوع أهميةً من خلال التنويه بشاعر العصر والإبداع إيليا أبي ماضي أحد أعظم أدباء المهجر.

لقد دفعنا إلى اختيار هذا الموضوع، ما تضمنته القصيدة من ظواهرَ لغويةٍ مثيرة للاهتمام، إضافة إلى المقاصد الدلالية الفلسفية التي أثارت فضولنا واهتمامنا هي الأخرى.

ويمكننا أن نقف عند إشكالية هذا البحث لمحاولة الإجابة عليها من خلال اختيار قصيدة الطلاسم لإيليا أبي ماضي؛ مرتكزين في هذا على التحليل التركيبي اللغوي، ففيمَ تتمثل خصائص لغة الشاعر في قصيدة الطلاسم؟ وما علاقة المستوى التركيبي بالدلالة التي تضمنتها القصيدة؟ وهل يمكننا من خلال حصر المعجم الشعري أن نقف عند أهم الخصائص اللغوية لبنية النص؟

للإجابة عن هذه التساؤلات، اعتمدنا المنهج الأسلوبي والتحليلي مستعينين في ذلك بالمنهج الوصفي حسب ما تقتضيه مباحث المذكرة.

وقسمنا بحثنا إلى فصلين؛ أما الأول؛ فتحدثنا فيه عن حياة إيليا أبي ماضي وتأثير عامل المهجر في شعره، واتجاهه الرومنسي، ونزعته الفلسفية. وأما الفصل الثاني فتحدثنا فيه عن خصائص التركيب اللغوي في قصيدة الطلاسم، ثم ذيلنا البحث بخاتمة أوردنا فيها مجمل النتائج التي توصلنا إليها.

وفي الأخير لسنا ننسى أبدا فضلَ أستاذنا المشرف **سليم مزهود** الذي وقف معنا وقفة الأخ الحقيقي، بمساعداته وطيبة تعامله، وصبره وتشجيعه إيانا، حتى لا نكاد نحس بروحِ يأسٍ فيطفئها بآماله وزرعِ التفاؤلِ فينا. وها هي المذكرة منجزة فله الفضل كله. والحمد لله رب العالمين فضلا كبيرا لا حد قبل حمده أو بعده.

فإن كان النقص في بحثنا فمنّا وإن كانَ فيه الكمالُ فمن الله تعالى وتوفيقه.

الفصل الأول؛

إيليا أبو ماضي؛ فلسفته ونزعته التأملية

• المبحث الأول؛ حياة إيليا أبي ماضي[1]:

إيليا أبو ماضي (1889-1957م)؛ شاعر عربي لبناني يعتبر من أهم شعراء المهجر في أوائل القرن العشرين.

نشأ أبو ماضي في عائلة بسيطة الحال فلم يتمكن من متابعة دروسه في القرية التي ولد فيها، وإنما تلقى بعض الدروس الابتدائية البسيطة، إذ دخل مدرسة "المحَيْدثَة" في جوار إحدى كنائس المنطقة.

ولما اشتد به الفقر رحل إلى مصر عام 1902 بهدف ممارسة التجارة مع عمه واستغل هذه الفرصة ليمتهن تجارة التبغ. والتقى بأنطون الجمَيِّل، الذي كان قد أنشأ مع أمين تقي الدين مجلة "الزهور" فأُعجب بذكائه وعصاميته إعجابا شديدا ودعاه إلى الكتابة بالمجلة؛ فنشر أولى قصائده بالمجلة، وتوالى نشر أعماله، إلى أن جمع بواكير شعره في ديوان أطلق عليه اسم "تذكار الماضي" وقد صدر في عام 1911م عن المطبعة المصرية، وكان أبو ماضي إذ ذاك يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما.

اتجه أبو ماضي إلى نظم الشعر في الموضوعات الوطنية والسياسية، فلم يسلم من مطاردة السلطات، فاضطر للهجرة إلى الولايات المتحدة عام 1912 حيث استقر أولا في سنسناتي بولاية أوهايو حيث أقام فيها مدة أربع سنوات عمل فيها بالتجارة مع أخيه البكر مراد ثم رحل إلى نيويورك، وفي بروكلن تأسست الرابطة القلمية مع جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة فكان من أعضائها المشاركين بعد أن تعرّف إليهما حين سعيا إلى تأسيسها، ثم عاد أدراجه عام 2016م إلى نيويورك مرة أخرى حيث حياة رحبة للثقافة والصحافة والأدب.

ثم صار له الفضل في إنشاء بعض المجلات العلمية التي تخص ميدان اللغة العربية والأدب، وأشرف على العديد من المجلات الأدبية مثل المجلة العربية ومجلة مرآة الغرب لصاحبها نجيب دياب عام 1918م[2].

1- انظر: ترجمة إيليا أبي ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، لبنان، 2005م ص:12-16

2-انظر: موقع الأستاذ سليم مزهود: http://salimprof.hooxs.com/t1407-topic

أصدر مجلة "السمير" عام 1929م، فغدت مصدره الأول في أدبه وشعره، إذ نشر فيها إنتاج الأدب المهجري وبخاصة المهجر الشمالي شعراً ونثرًا، واستمرت في الصدور حتى وفاة الشاعر عام 1957م.

تزوج إيليا أبو ماضي دوروتي دياب ابنة نجيب دياب الذي أصدر مجلة "مرآة الغرب" في الولايات المتحدة، وخلف ثلاثة أولاد هم ريتشارد وإدوارد وروبرت بوب[1].

يعتبر إيليا من الشعراء المهجريين الذين تفرغوا للأدب والصحافة ويلاحظ غلبة الاتجاه الإنساني على سائر أشعاره لاسيما الشعر الذي قاله بعد تأسيس الرابطة القلمية وتأثره بجبران خليل جبران.

1- ترجمة إيليا أبي ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي. ص:16

• المبحث الثاني؛ العوامل المسْهِمة في تشكيل وجدان إيليا أبي ماضي الشعري:

إن أهم العوامل التي أسهمت في تشكيل وجدان إيليا أبي ماضي الشعري تتمثل في العناصر الآتية:

– **الطبيعة اللبنانية:** إذ كانت الطبيعة الخلابة تحيط بإيليا في صغره حين كان يلعب في قريته الصغيرة (المُحَيْدِثَة) القابعة فى حضن جبل لبنان بما فيه من خضرة تزينه وتزين القرية من تحته، وما يحيط به من جداول الأنهار وروائع الأشجار والحقول الثرية المخضرة المتنوعة، مما أثرى تجربته الشعرية فتَفَتَّحَ ذهنُه بسرعة للشعور بمعاني الجمال الكامن فى تلك الآيات الطبيعية الرائعة.

– **الظروف الاجتماعية:** إن الظروف الاجتماعية السيئة وحال الفقر التي عاشها الشاعر حين كان صغيرا وما أصاب العالم العربي من فتن وآلام وما وقع عليه من مظالم منذ الحكم العثماني، جعل الشاعر يحمل رسالة اجتماعية لنشر قيم الحب والخير والحق والجمال، فكتب دوماً عن معنى المساواة الاجتماعية.

– **الهجرة والاغتراب:** إن هجرة الشاعر عن وطنه وإحساسه بالغربة وآلامها قد كان له الأثر الكبير في توليد فيضٍ عظيم من الإحساس المرهف ألهب في داخله الشوق والحنين إلى الوطن والأهل.

– **الاختلاط بالنخب:** إذ إنَّ اختلاط الشاعر بكبار شعراء المهجر من أمثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، منحه شرفَ الانتماء إليهم ومنْ ثَمَّ بناء منهج وأسلوب خاص يستخلص روحه من أفكارهم الأدبية تأثرا باتجاههم الرومنسي ونزعتهم الإنسانية في رسالتهم الأدبية التي حملوها إلى العالم التي تتلخص في نشر قيم الحب والحق والخير والجمال.

• تغير الاتجاه الشعري للشاعر إيليا أبي ماضي:

بدأ إيليا أبى ماضي حياته الشعرية محافظا على نهج المدرسة الكلاسيكية القديمة ينظمُ قصائده على الطريقة الخليلية العمودية متأثرا في ذلك بأمير الشعراء أحمد شوقي

ومحمود سامي البارودي وحافظ إبراهيم، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا فتخطاه إلى عكسه بأن نظم في الشعر الحر وفق مبادئ الرابطة القلمية إثر انضمامه إليه وتأثره بجبران خليل جبران وميخائيل نغيمة، فجدد في بناء قصائده.

- **أبرز أعمال إيليا أبي ماضي الشعرية**[1]: ترك الشاعر إيليا أبو ماضي مجموعة كبيرة من القصائد التي انمازت بروعتها ومضامينها الإنسانية بشكل خاص وتميز بعض بالحنين إلى الوطن.

– تذكار الماضي (الإسكندرية: 1911م)؛ إذ تناول فيه موضوعات مختلفة أبرزها الظلم الاجتماعي والسياسي فعرض الشعور بالظلم الممارس من قِبَل الحاكم على المحكوم مهاجما في ذلك الطغيان العثماني ضد بلاده.

– ديوان إيليا أبو ماضي (نيويورك:1918م): كتب مقدمته جبران خليل جبران، وجمع فيه إيليا قصائده في الحب والتأمل والفلسفة، إضافة إلى قصائدَ في موضوعات اجتماعية وقضايا وطنية في إطار رومانسي حالم حينا وثائرٍ حينا آخرَ.

– الجداول؛ (نيويرك:1927م): كتب مقدمته جبران خيل جبران.

– الخمائل؛ (نيويورك:1940م): هو من أكثر دواوين إيليا نجاحا، إذ اكتمل فيه نضجُ إيليا أدبيا وظهر جليا أسلوبه الشعري المتفرد في توظيف التضاد في حوار الروح والجسد والثورة والسلام والواقع ورسم الخيال.

– تبر وتراب.

– الغابة المفقودة.

– قصص الأغرش وامرأته الهبلة.

– مغامرات خالد سعيد مع الحياة.

- **مضامين شعره:**

يسميه كثير من النقاد: شاعر الأمل والتفاؤل، إذ إن الجمال حاضرا في أغلب أعماله الشعرية، تتماز قصائده بتوظيف عناصر الطبيعة التي يعشقها حتى النخاع.

1– ترجمة إيليا أبي ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي. ص:16

ويوصف بحمل روح الشرق في المهجر فلم ينسَ أصله ووطنَه بل لم ينسَ طبيعة الوطن بجمالها وروعتها التي تجسدت في الجداول والجبال والاخضرار والحقول والأرض والسماء.

كما لم ينسَ أوجاع الفقراء والمحزونين فنظَمَ لهم شعرا ورفع من قدرهم واحترامهم، وخفف عنهم، وأما الوطن فلم يغبْ عنه أيضا إذ كان لبنانُ محورَ يومياتِه الشعرية فأجاد مع الحرب العالمية في ترجمة الحنين إلى الأسرة والأرض شعرًا.

وأما في الحب فقد كانت تجاربه قاسيةً عاطفيًا، لكنه لم يفقد الأمل في نظْمِه، فكان حلمه كبيرا يغلب أي قسوة أمامه لا يستسلم ولا يقع منكسرا.

• المبحث الثالث؛ فلسفة إيليا أبي ماضي ونزعته التأملية:

يرجع تطور النزعة التأملية وظهورها في الشعر العربي في أواخر القرن التاسع عشر بالنظر العميق إلى جوهر الإنسان والأشياء ونبذ التعصب والقبلية، وأبرز من بدأ هذا الاتجاه جبران خليل جبران، في قوله:

ماذا تطلبون من الحياة يا بني أمي؟ ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها؟ أرواحكم تنتفض في مقابض الكهّان والمشعوذين، وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفاحين. فماذا ترجون من وقوفكم أمام الشمس؟ في هذا العصر استحق الناس قيمة الحياة وحاول الناس في البحث عن السعادة.

إن للتأمل مكانا خاصا في الشعر المعاصر بل في فنون الأدب المختلفة شعرا ونثرا إلى درجة نستطيع القول فيها إنه يشكّل مدرسة خاصة.

"ثم في تلك البلاد النائية انقسم المهاجرون إلى قسمين وذهب فئة منهم إلى الأمريكا الشمالية وفئة آخر ذهبوا إلى الأمريكا الجنوبية وأسسوا الأدب الخاص لأنفسهم؛ إذ إنَّ ميزة التأمل عند المهجريين واضحة جدا، وهي أشد وضوحا وأبعد أثرا عند أدباء الرابطة القلمية خصوصا. كان هؤلاء الأدباء في تأملاتهم يتجردون من طبيعة الصلصال والطين. فيسمون فوق البشر والحياة ويطوفون بأخيلتهم في عوالم بعيدة مجهولة يحللون النفس البشرية ويحاولون إماطة اللثام عن كنه الحياة وأسرارها وطلاسمها. ويضيعون بين الشك واليقين باحثين عن الحقيقة الكونية الكبرى. وتتسع نزعة المهجريين التأملية فتشمل الحياة الإنسانية والنظرة إلى الحياة والوجود والمجتمع البشرى ككل؛ وهي الحلم الأكبر الذي كان يراود أخيلة المفكرين والفلاسفة والشعراء، ومن معانى هذه الإنسانية نثر المبادئ السامية والمثل العليا ومحاربة النظم الفاسدة، والعمل على إنشاء المجتمع الإنساني الأمثل، ومحبّة الوجود وكل ما هو موجود دون تفريق أو تمييز[1].

"إن للتأمل أنواعًا ومنها التأمل الفلسفي الذي نتناوله في هذا القسم من البحث، وهو يبلغ أهمية عظيمة لدى المبدعين في الأدب والفكر والثقافة؛ لأنه يساعدهم على فهم الواقع والرابط بين العناصر والوصول للمقدمات والبحث عن النتائج، والتعبير عن ذلك كله بأسلوب

1- خليل برهومي: إيليا أبوماضي شاعر السؤال والجمال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، دت، ص:50-51

مبدع وفكر مقنع. وعودة إلى التأمل الفلسفي أو الإبداعي، فقد كان له تأثيره الواسع عبر التاريخ في نشوء الفلسفات والأفكار والمناهج المختلفه، لكنه لم يعد في عصرنا الحديث كما كان من قبلُ؛ حيث لا يجوز الاستناد إلى التأمل في الوصول إلى الحقائق العلمية سواء أكان ذلك في العلوم الطبيعية أو الإنسانية؛ لأن حقائق العلم تحتاج إلى التجارب التي تثبتها والبحوث الميدانية الواقعية، غير أن هذا القول لا يقلل من أهميه التأمل الفلسفي والإبداعي. فالتأمل هو الذي ساق الفلاسفة والمفكرين إلى وضع أسس المنطق والتفكير السليم والمنهج العلمي في حل المشكلات وإلى الاكتشافات والاختراعات العلمية والتقدم في نتائج الأبحاث والدراسات الإنسانية[1]

ويفيد الشاعر في تأملاته من الطبيعة وجوانبها ومظاهرها إذ تشكل له الطبيعةُ "مقرًّا للروح والجسد فوجد الطبيعة المكان الأنسب الذي يناسبه ويخفف عنه ضيق العيش وقسوة الحياة، والإنسان الذي ينسجم مع الطبيعة ويحل بها نفسا وجسدا، يصبح جزءاً منها يعيش معها وتعيش معه. والطبيعة مصدر إلهام الشاعر يستلهم منها الحياة وكل ما فيها من تأمل وفكر وفلسفة، فهو يضفي على الطبيعة الحياة بل ويتصور فيها روحا كالإنسان يناجيها فتتجاوب معه ويناقشها فترد عليه نقاشه[2]

لقد كان للتأمل في شعر المهجريين ونثرهم مكان خاص وعريض. ولقد عني أدباء الرابطة بأسرار الحياة وما بعد الطبيعة ومصير الإنسان ووجوده ويعد أبو ماضي من أبرز شعراء الرابطة القلمية في الشعر التأملي، نشاهد في بعض آثاره تأثيره من الفلاسفة الشرق والغرب أو من بعض فلاسفة المسلمين كما في قصيدته (العنقاء) و(ديوان) التي تحدث فيها عن (الحقيقة أو النفس) متأثرا بابن سينا في قصيدته عن (الروح) و(ديوان) التي مطلعها: **هبطت إليك من المحل الأرفع..** وقد ذكر أبو ماضي في هذه القصيدة أنه فتش عن الحقيقة في كل مكان سائلا عنها الفجرَ والظلام والقصر والبحر[3].

1- أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. دار العلم للملايين، بيروت، ط:4، (دت) ص:302

2- واصف أبو الشباب: القديم والجديد في الشعر العربي الحديث. دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط:1، 1988م، ص:159

3- أنيس الخوري المقدسي: المرجع السابق. ص:302

ويكاد يكون التأمل في أشعار الرابطة القلمية السمةَ البارزة الأولى في شعر الرابطة القلمية. ينماز إيليا أبو ماضي في شاعريته بالنزعة الفلسفية، فهو ذو رؤيةٍ فلسفية في كل نظرة من نظراته إلى الحياة من حوله، ففي الموت له فلسفة وفي الكون والوجود له فلسفة، وفي السياسة وفي المجتمع له فلسفة، وفي الحب له أيضا فلسفة. إنه يؤمن بخلود روح الإنسان فالموت ليس آخر العالم، بل تكملة لمسيرة الإنسان.

وقد شارك الشاعرُ إيليا الشاعر جبرانَ خليل جبران في ايمانه بالتقمص والعودة بأشكالٍ حياتية أخرى وخصص مساحةً بارزة في شعرة لما وراء الطبيعة.

كان إيليا أبو ماضي ينبذ التعصب والطائفية في الدين بشكل خاص، فجاءت قصائده تبشيرا بالديانة الإنسانية، تنطلق من كون الإنسانِ أخَ الإنسان، وأبرز السمات التي نلحظها في شعر إيليا أبي ماضي هي جنوحُه الى النزعة الفلسفية فى أشعاره المتمثلة فى رؤيته للموت والحياة والوجود والعدم والسياسة والمجتمع؛ إنه يؤمن دائما أنّ الانسان مخلد بعد مماته لأن آثاره باقية تتحدث عنه والموت ليس هو آخر المنتهى بل هو مرحلة جديدة من مراحل البقاء.

وتظهر تلك النزعة الفلسفية واضحة جلية فى قصيدته الطلاسم حيث يقول في أحد مقاطعها:

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود
هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنّى أنّني أدري ولكن
لست أدري!

ولاشك في أن الشاعرَ المبدعَ الكبير إيليا أبا ماضي الذي ينتمي الى المدرسة المهجرية يعدّ من شعراء الطراز الأول الذين أغنوا الشعر العربي المعاصر بتراث إنساني رائع من القصائد ذات النزعة الإنسانية التي يغلب عليها الاتجاه الرومانسي الداعي الى التفاؤل في الحياة فهو شاعر الطبيعة بامتياز وهو الذي اتخذ من أشعاره منبرا ومنطلقا لطرح أفكاره الفلسفية في عالم الوجود والعدم وما وراء الطبيعة والروح والحقيقة. فكان شعره مليئا بالتساؤلات الحائرة في قصيدته الشهيرة الطلاسم التي يقول في مطلعه :

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي لست أدري

إن قصيدة الطلاسم من روائع الشعر العربي على مرّ العصور في موسيقاها وأدائها التي تنماز به، إنه تشبه القصائد الملحمية، لكنها الملحمة مع المجهول، وبالرغم من هذه المتاهة إلّا أنها تنماز بالوحدة الموضوعية، ونابعة من حب الطبيعة الأم،

إن أبا ماضي يميل دائما الى التأمل والتفرد والوحدة التى يجد فى صمتها مجالا خصبا فى استكشاف حقيقة الوجود وما يزخر به من أفكار ويتخذ من مظاهر الطبيعة مؤنسا له في وحدته بمناجاة أطيافها وتحويل المجرد إلى محسوس متحرك، وجعل عناصر الطبيعة حية مثل بقية الكائنات الحية بل إنها أم الكائنات جميعها، إنها تتكلم وتسمع وتفكر وهي مصدر الإلهام كما هي مصدر الحيرة، بل إنها في حد ذاته تحتارُ.

ويخاطب الشاعرُ إيليا في قصائده المتشائمين أصحاب النظرة السوداوية فيرشدهم إلى أمهم الطبيعة التي أعطهم كل شيء، فعليهم أن يفيدوا منها ويستجيبوا لصوتها الداعي إلى التمتع بالخيرات والسعادة النفسية. يقول الشاعر أبو ماضي:

أيّ هذا الشَّـــاكي وما بك داء .. كيف تغدو اذا غدوت عليــلاً
إن شر الجناة في الأرض نفسٌ .. تتوقى قبل الرحيل الرحيـــلا
وترى الشّوك في الورود، وتعمى.. أنْ ترى فوقها النّدى إكليـــلا
هو عبء على الحـــياة ثقيلٌ .. من يظنّ الحياة عبئا ثقيـــلا
والذي نفسه بغير جمـــــــالٍ .. لا يرى في الوجود شيئا جميلا

ومن خلال الأبيات يتضح أن الشاعر يعتبر الإنسان الذي يتمنى الموت قبل حلول موعده مجرما ويتعجب كيف أنَّ يشكو الإنسان وتسيطر عليه النظرة التشاؤمية وهو لا يعاني أيَ مرض وليس به أي داء، وقصد بالمرض الذي يتوهمه الإنسان هو مرضه الروحي والنفسي المتمثل في التشاؤم ومثل هؤلاء الناس سلبيوهم ذووا نظرة سوداوية، يقول الشاعر:

وترى الشوك في الورود .. وتعمى أن ترى فوق الندى إكليلاً

يعني أن المتشائم يركز نظره على الجانب المظلم من الحياة، حتى حين يرى الورود والأزهار فهو يعمى عن سحرها ولونها الجميل وتفتحها ورائحتها الزكية، لكن يلتفت إلى الشوك الذي في جذرها وغصنها. فلا عجب أن يسيطر على نفسِه القبح فلا يرى شيئا جميلا، على حد قول الشاعر:

والذي نفسه بغير جمالٍ .. لا يرى في الوجود شيئا جميلا

لأجل ذلك يدعو الشاعر المتشائمين أصحاب النظرة السوداوية إلى اغتنام الفرص قبل زوالها وفوات الأوان، فعليه أن يتمتع بحلاوة الطبيعة وسحرها الأخّاذ ويأخذ من جوّها البديع جوّه المشرق في الحياة. يقول الشاعر:

أدركت كنهها طيور هذه الروابي .. فمن العار أن تظل جهولاً

فالطيور فيها تتغنى غير مبالية بالصقور والنسور والصائدين الذين يتربصون بها ريب المنون. يقول الشاعر:

تتغنى والصقر قد تملك الجو .. عليها والصائدون السبيلا

فالبرغم من عوامل الموت والفناء التي تقترب منها بسبب المخاطر التي تحيط بها من كل جانب، إلا أنها تطير وتسير متفائلة تغرّد وتغنّي وهي تعلم تلك المخاطر وأن عمرها قصير جدا مقارنة بعمر الإنسان لكنها سعيدة فلماذا يعيش الإنسان في تعاسة وله من العمر والخير وأسباب السعادة ما لا تملكه تلك الأطيار السعيدة. يقول الشاعر:

تتغنى وعمرها بعض عام .. أفتبكي وقد تعيـــــش طويلا

فاطلب اللهــو مثلما تطلب .. الأطيارُ عند الهدير ظِلاً ظليلاً

ينبغي على الإنسان أن يغتنم فرصة الحياة في الحب من الطبيعة لأجل نفسه وغيره. يقول الشاعر:

تعلم حب الطبيعة منها .. واترك القال للورا والقيلا

فينغي على الإنسان ترك اللغو وما ليس له فائدة ترجى من قوله من أحاديث باطلة أو كذب وزيف والابتعاد عن كل ما من شأنه إحداث التشاؤم في نفسه؛ لأن الخير أصل فيه وأصله من تراب الأرض، فلا فرق بين أن يكون ملكا أو عبدا ففي الحالتين كلتيهما هو راجع إلى التراب. يقول الشاعر:

أنت للأرض أولاً وأخيراً .. كنت ملكاً أو كنت عبداً ذليلاً

كان إيليا شاعراً متأملاً؛ يُكْثِرُ من التأمل في شعره دائما، وكان ذا رؤية فلسفية أي له في كل شيء فلسفة في الكون والوجود والسياسة والمجتمع والحب والإنسان؛ فشعره يصطبغ بالصبغة الفلسفية والاجتماعية والروحية معا، فهو إنسان مثالي يحب البشر ويحب الحياة قاصدا سعادة المجتمع، محببا الحياة إلى الإحياء يدعوهم إلى تنقية العمر من الأشواك والأدران. إنه يحب الحياة والأحياء فيها ويصوّرها لهم نقيّة حلوة، والذي يزود شعر أبي ماضي بعناصر الحيوية والتأثير هو أن شعره ينبع من قلبه؛ ولعل أبرز ما يقرب هذا الشعر إلى النفوس نواح ثلاث: النزعة الإنسانية، والدعوة الى محبة الحياة واستهلام الطبيعة[1] .

من خلال قصائد أبي ماضي نجده متأملا متفلسفاً يعرض لمشاهدته، ومفرغاً آراءه في الكون وما فيه. وهي لا تخرج عن الإطار الوعظي المتمسك بشغاف الروح، الحامل لأعباء الدنيا ليدل الناس على طريق السعادة[2].

وأبو ماضي في محاولته الإنسانية، قد لا يكون من الذين قبضوا على الرؤى البعيدة الكامنة في أعماق الإنسان، ولكنه استطاع بالجدل والاستفهام والخبر، أن يجسّد الفكرة التي رمى إليها، وأن يكون مؤثرا ومقنعاً في آن واحد[3]

وإنا لنجد عند إيليا أبي ماضي نزعة إنسانية خالصة تسمو على كل نزعة وروحا عُلْيَا تفوق كل روح إنه يحب الناس ويحب الحياة التي أوجدتهم ويدعوهم جميعا إلى محبتها خير وفيها جمال، من هنا جاءت نظرته الباسمة وروحة المتفائلة التي فاض تفاؤلها فغطى على كل ميزة أخرى ميزت شعره وطغى على كل صفة يمكن أن نطلقها عليه[4]

ويبدو أن إيليا أبو ماضي في شتى أطوار شعره وشتى مراحل حياته رجلُ التفاؤل والدعوة والطبيعة في إشراق وانفتاح قلما نجدهما عند غيره من شعراء الرومنسية الحديثة، ونظرته الفلسفية في ذلك أن الحياة جميلة وأن الطبيعة حافلة بعناصر الجمال والمتعة، وأن ما مضى فقد مضى، وأن ما لم يأتِ بعدُ لم يأتِ، فما للإنسان إلا أن يعيش في واقعية الوجود، وأن يملأ ناظريه بمحاسن هذا الوجود، فلا ينظر إلى ماضٍ زال، ولا إلى مستقبل لم يأت بعد، ولا

1- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي،الأدب الحديث. دار الجيل للطبع، مصر، ط:1، 1986م، ص:596

2- أنيس الخوري المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ص595

3- المرجع نفسه. ص:596

4- نادرة جميل السراج: شعراء الرابطة القلمية. دار المعارف، مصر، دت، دط، ص:333

يأخذ إلا باللحظة الحاضرة في تصرف وجودي واقعي، ويأخذ من الحياة والجمال الكوني ما يستطيع أخذه، وأن يكون كالطبيعة في عطائها الجمالي فيوزع النفع والسعادة على الجميع في غير تمييز ولا تفريق[1]

وقبل أن يعلن هذه الفلسفة التفاؤلية عانى الشاعر ما يعانيه كل إنسان عندما ينظر بعمق إلى مصيره، فلا شك أنه واجه في داخله الصراع الذي يقوم بين عوامل التشاؤم وعوامل التفاؤل، ولا شك أنه تقلب بين هذه وتلك، ورأى في آخر المطاف أن الاستسلام للتشاؤم موت مبكّر، وأن العيش في أجواء التفاؤل إبعاد للملل واليأس والانتحار المعنوي[2].

لقد كان في قصائد إيليا كثير من التأمل في الحياة وجوانبها؛ وله في ذلك ثلاث قصائد شعرية مليئة بروح التأمل إلى حد الحيرة والغموض والاندهاش هي: الطلاسم في ديوانه الجداول، وحكاية الأزلية وشاعر وسلطان الحائر في ديوانه الخمائل.

وتسمى كل قصيدة من القصائد الثلاث؛ المطولة؛ أي هي مجموعة تأملات متطلعة إلى البحث عن الحقيقة يرسلها عقل كبير، لا تقنع بالوقوف عند الظواهر والقشور، بل يحاول التغلغل إلى الأعماق ويبلغ مجموع هذه المطولة واحدا وسبعين مقطعا، يتألف كل منها من أربعة أبيات، تنتهى دائما بعبارة «لست أدرى» ويستهل الشاعر طلاسمه التساؤل الحائر عن مصدره و عن سر وجوده[3]. ويحاول الشاعر في هذه القصيدة أن يطرح التساؤلات الفلسفية عن الحياة والوجود والإنسان وبدايته ونهايته؛ لأنه يريد أن يداخل أفكار القارئ في فلسفة الحياة وأنه لا يجيب نفسه عن هذه الأسئلة ويقف في موقف «لاأدري». تاركا القارئ بين مجموعة من التساؤلات وبين الحيرة والشك .

هذه الأسئلة خطرت ببال أبي ماضي وبعد التأمل والتفكر يصل إلى أنها حائرة و حالمة ولا يدري عنها شيئا، فيبدأ الشاعر قصيدته بجهله في مصدر وجوده ومصدر الوجود كله، لا يعرف إلا حياته، وهي حياة لم يكن له فيها رأى ولا اختيار أو إرادة، فهو يقف من حقيقة الوجود، في مصادره و مصايره، و في جوهره و تركيبه، موقفاً لا أدريّا مشهورا[4]

1- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص593

2- المرجع نفسه. ص:594

3- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص192

4- نادرة جميل السراج، شعراء الرابطة القلمية،، ص:136-137

يستمر الشاعر قصيدته على هذا النحو محاولاً التغلغل في أعماق الحياة والوجود، ينهى أبياته جميعا بعبارة لست أدري وينتقل بين الأبيات في البحر والدير والمقابر والكوخ والقصر بحثا عن الحقيقة، ولكن يرتد عنها جميعا بعبارة لست أدري. يقوم في نفسه صراع بين الخير والشر أو بين الملاك والشيطان وما يثيران من سعادة أو شقاء ومن حب أو كره ومن حسن أو قبح، وحين يقابل بين هذه الأمور كلها يظل حائراً لا يهتدي إلى جواب فيسأم من التساؤل. وحين يمل الشاعر الطواف، وتسأم نفسه التساؤل، ثم لا يقع على شيء من الحقيقة التى أجهد نفسه في البحث عنها، يعود من جديد إلى حيث بدأ. يعود إلى نفسه عن كنهها وحقيقتها، فلا يزداد الإ حيرة[1]

وإيليا أبو ماضي في طلاسمه «بعد أن تشكك وتساؤل في شؤون النسك والزهد والعبادة وفي ماهية الموت والقبر والبحث، وبعد ما حار في أمر القصر وساكنيه والكوخ الثاوى فيه عرج على نفسه المضطربة الهائجة فوجد فيها صراعا وعراكا كاد يعتقد على أثره بازدواج شخصيته[2]. يقول الشاعر:

إننى أشهد في نفسي صراعا وعراكا .. وأرى ذاتي شيطانا وأحيانا ملاكا[3]

لكن ما الذي يجب أن يعنى إليه هو أن الشاعر لا يقصد أن يجعل القارئ في الشك والحيرة بل يريد أن يسير الإنسان في طريق المعرفة والشك يصل إلى المعرفة ويؤكد أنيس الخوري المقدسي في كتابه أن إيليا أبي ماضي وإن كان مؤمنا وبعيدا عن الكفر،لا يحجم قلمه عن بعض الفلتات التي لا تخلو من الشك والقلق العقائدي يكثر من الاستفهام والجواب والنَّفي والنداء ملبّيا بذلك حاجة مباشرة في النفس تزول حالما ينتهي وقعها[4]

والجدير بالذكر أن: «هناك نوعًا من الناس يستكبرون أنْ يعمد إنسان إلى البحث في أسرار الحياة ونوعًا ثان يتخذ من هذه القصيدة حجة على عقيدة الشاعر الفلسفية، فينسبونه بكل بساطة إلى جماعة «اللاأدريين»، ونوع ثالث يأخذ الأمور بظواهرها، فيرون أن الشاعر يبدو في هذه القصيدة كبدوي ساذج يدخل المدينة لأول مرة، فبهته أضواؤها وزيناتها وبناياتها

1- نادرة جميل السراج، شعراء الرابطة القلمية،، ص:136-137

2- المرجع نفسه. ص:137

3- إيليا أبو ماضي: ديوان أبي ماضي. ص:103

4- أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. ص:595-596

الفخمة، فيقف أمامها حائراً ملجوم اللسان، لا يدرك من معجزاتها شيئا. لكن أصحاب الرأي الأول إنما يحسبون أن السعادة في الجهل والرضي بالظاهر وحده، وأن الشقاء هو في البحث عن المعرفة. وهذه هي فلسفة الكسالى الذين لا يَجِدّون في أنفسهم القدرة على تحمل أعباء المعرفة الحقيقية التي هي وحدها سبيل السعادة الحقيقة، والتي يكون شقاء البحث عنها أهون بكثير من شقاء الجهل، والقناعة بالمعرفة السطحية. وأبو ماضي أعلى نفسا أبعد همة من أن يجلس في هذه الحضيض كما تجلس العجائز حول مواقد كانون وأما الرأي الثاني فدليل على جهل أصحابه عقيدة أبي ماضي ودوافعه النفسية، فليس أبو ماضي من اللاأدريين، ولا هو بالرجل الذي يحسب أن في اللاأدرية سعادة الروح وإن يكن في «طلاسمه» نحو خمسة وسبعين «لست أدري» في مختلف شؤون الحياة الروحية والدنيوية[1]

إن مظاهر الحياة متشابكة ولا يمكن فصل بعضها من بعض في رأي الشاعر فالحياة من حيث هي خير وبركة أو شر وسوء، والحياة من حيث هي هدوء وطمأنينة أو اضطراب وخوف. وكان الشاعر يفيد من مظاهر الحياة الاجتماعية لمعالجة موضوعات الحياة. فالحياة في نظره سانحة من سوانح الوجود، ينبغي الإنسان أن ينظر إليها نظرة واقعية حافلة بالتفاؤل والاستماع، وهو يبدي شيئا من الاستسلام للقضاء والقدر، ويجعل الرومانسية الجبرانية في أعماق نفسه ويغلفها بالرضى والبشاشة؛ والحياة الاجتماعية في نظر أبي ماضي هي حياة الواقع الإنساني التي يجب على الإنسان أن يلبسها كما هي، والسعادة هي انطواء نفسية على اللذات القانعة[2]

إنَّ الحياةَ قَصيدةٌ، أعمارُنـــا
أبياتُـــها، والمـوتُ فيها القافيه
متِّع لحاظَكَ في النجومِ وحُسْنِها
فلَسَوفَ تمضي والكواكبُ باقيه[3]

1–سالم المعوش: إيليا أبوماضي بين الشرق والغرب في رحلته التشرد والفلسفة والشاعرية. مؤسسة بحسون، بيروت 1997م، ص:289

2– حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي،الأدب الحديث. ص:590

3– إيليا أبو ماضي: ديوان إيليا أبو ماضي. ص:606

أما نظرته إلى الحياة فمتفائلة مؤمنة بجمال الحياة، يقول:

عش للجمال تراه العينُ مؤتلقا .. في أنجم الليل أو زهر البساتين[1]

- **فلسفة السعادة في قصائد إيليا أبي ماضي:**

يرى الشاعر أن أنجع عوامل السعادة الإنسانية في هذه الحياة أن يكون الإنسان في قناعته فهي مصدر عطاء؛ أي أنْ يشرك الناس فيما يرضاه لنفسه، وأن يكون عطاؤه اندفاقا ذاتياً كاندفاق الماء من الينبوع والنور من الشمس[2].

إن السعادة هي أن يقتنع الإنسان بما تقدمه الطبيعة، ولا يطلب من الناس أكثر مما يستطيعون أن يعطوه، كما أن الشاعر يبين أن الناس جميعا من طينة واحدة، وأن للجميع الحق في العيش، وأن الجشع والظلم تجاوز للحدود الإنسانية، وخروج عن النظام الكوني وإساءة الى الطبيعة التي وزعت الطاقات ومناهل السعادة على الناس جميعهم[3]

ويرى الشاعر أن الإنسان مسؤول عن سعادته وشقائه فبيده استعادة نفسه وإتعاسها، فإن ابتسم؛ ابتسم له الكون، وإن تجهَّم اسودَّت الدنيا من حوله. وكان إذا رأى يائسا شاكيا، خَفَّ إليه يدعوه بشعره إلى التفاؤل والأمل والثقة بالنفس، يشرح له كُنْهَ الحياة، وسبيل السعادة فيها[4].

والسعادة الحقيقية، كما ذكرنا هي مثل الطائر الأسطوري العملاقي الذي يدعى: «عنقاء» إنها شبح وهمّي فلا هي في الغنى ولا هي في أي شيء خارجي. إنها في الرضى والاقتناع بما قسم لكل واحد منا إنها انطواء النفس على الذات القانعة التي تقف عند الواقع الوجودي لا تطمع في غيره[5]. يقول الشاعر:

ليت الذي خلق الحياة جميلةً .. لم يُسْدِلِ الأستارَ فوقَ جمالِها

بل ليته سلب العقول فلم يكنْ .. أحدٌ يعلّل نفسه بمنـــــالها[6]

1- إيليا أبو ماضي: ديوان أبي ماضي. ص:515

2- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث. ص:595

3- المرجع نفسه. ص:596

4- صلاح الدين الهواري: شعراء المهجر الشمالي. دار الهلال، لبنان، ط:1، 2009م، ص:23

5- أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. ص:594

6- إيليا أبو ماضي: المصدر السابق. ص:397

بعد الكلام عن التأمل والتأمل الفلسفي في أدب إيليا أبي ماضي نصل إلى تأملات الشاعر في الطبيعة لأنها تزدهر في الطبيعة كثيرا وهي ملجأ الشاعر.

ويعني أدب الطبيعة تصوير المشاهد الطبيعية والتعبير عما تثيره في نفس الإنسان. وليس وصف الطبيعة جديدا في الأدب العربي، فالوصف الطبيعي قديم يرجع إلى العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام؛ إذ إنَّهُ وثيق الصلة بالبيئة البدوية من قفار ورياح وأنواء ونبات وحيوان وما إلى ذلك. وهو عادة دقيق يميل الى شرح الجزئيات. فإذا أراد الشاعر وصف حيوان كالناقة والحمار الوحشي مثلا فإنه يصور لك أعضاءه وألوانه ويوقفك على على حركاته وسكناته جميعها، وكذلك يفعل في وصف غير الحيوان مما يألفه ويعرف أحواله. ومن أمثلة ذلك وصف طرفة لناقته في قوله[1]:

لها فَخِذانِ أُكمِلَ النَّحْضُ فيهما .. كأَنَّهما بَابَا مُنيـــف مُمـرَّدِ
وطَيٌّ محالٍ كالحنيِّ خُلُـــوفُه .. وأَجْرِنَةٌ لُـــزَّتْ بدَأْيٍ مُنَضَّدِ
كأَنّ كناسَيْ ضـــالَةٍ يَكْنُفَانـهَا .. وأَطْرَ قسيٍّ تحت صُلْبٍ مُؤَيَّدِ
لهَا مِرْفَقَانِ أَفتَلانِ كـــأَنّمَا .. تَمُرُّ بسَلْمَى دَالـــجٍ مُتَشَدِّدِ
كقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّـــها .. لتُكْتَنَفَنْ حَتَّى تُشَـادَ بقَرْمَدِ
صُهَابِيَّةُ العُثْنُونِ مُؤْجَدَةُ القَـرَا .. بَعِيدَةُ وَخْدِ الرِّجْلِ مَـوّارَةُ اليَدِ
أُمِرَّتْ يَدَاهَا فَتْلَ شَزْرٍ وأُجْنِحَتْ .. لَهَا عَضُدَاها في سَقِيفٍ مُسَنَّدِ
جَنُوحٌ دِفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفرِغَـــت .. لها كَتِفَاهَا في مُعَـالَى مُصعَّدِ

ويَصف عُنُقَها فيقول:

وأَتلَعُ نَهّاضٌ إذا صَعَّدَتْ بـــه .. كسُكَّـــانِ بُوصِيٍّ بدِجْلَةَ مُصْعِدِ
وجُمْجُمَةٌ مِثْلُ العَلاَةِ كأَنَّـــمَا .. وَعَى المُلْتَقَى مِنْهَا إلى حَرْفِ مِبْرَدِ

وفي هذا البيت قال الأصمعيّ: لم يقل مِثْلَهُ أَحَدٌ وقد ذكَرنَا ما فيه وبيَّناهُ في أَبيات المعاني. وفيها:

ووَجهٌ كقِرْطَاسِ الشَّآمِي ومِشْفَرٌ .. كسِبْتِ اليَمَانِـي قَـدُّهُ لـم يُحَـرَّدِ
وعَيْنَـــــــانِ كالمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكَنَّتَا .. بكَهْفَيْ حِجَاجَيْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ
طَحُـــــــورَانِ عُوَّارَ القَذَى فتَرَاهُمَا .. كمَكْحُولتَـيْ مَـذْعُـورَةٍ أُمِّ فَـرْقَـدِ

1- أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. ص:348

ويصفُ أُذُنَيْهَا فيقول:

وصادِقَنَا سَمْعِ التَّوجُّسِ للسُّرَى .. وصادِقَنَا سَمْعِ التَّوجُّسِ للسُّرَى

مُؤَلَّلَتَانِ تَعرِف العِتْــقَ فيهما .. كسَـــامِعَتَيْ شاةٍ بِحَوْمَلَ مُفْرَدِ

ويصف طَوْعَها وحُسنَ قِيادها فيقول:

وإن شِئْت سامَي وَاسِطَ الكُورِ رأْسُها .. وعَامَتْ بِضَبْعَيْهَا نَجَاءَ الخَفَيْدَدِ

ويَصف إسراعها ونَشَاطَها فيقول:

أَحَلْتُ عَلَيْهَا بالقَطِيعِ فأَجْذَمَتْ .. وقد خَبَّ آلُ الأَمْعَزِ المُتَوَقِّدِ

فذَالتْ كما ذَالَتْ وَلِيدَةُ مَجْلِسٍ .. تُرِي رَبَّهَا أَذْيالَ مِرْطٍ مُمَدَّدِ

أما وصف الطبيعة فلم يتخذ مكانا خاصا في الشعر القديم وبعبارة أخرى لم يحسب وصف الطبيعة مضمونا خاصا في الشعر القديم كالغزل والهجاء والمدح، بل كان وصف الطبيعة في سياق غرض آخر. وفي هذا النوع من وصف الطبيعة لم يجد التأمل العميق وما يوحى إلى الشاعر الأفكار العميقة[1].

وقد تطورت البيئة العربية بعد استقرار الملك العربي في الشام والعراق ومصر والأندلس فتطور معها الشعر الوصفي، وهكذا انصرف عن الصحراء وأحوالها إلى الحواضر الجديدة وما تحويه من بساتين ومتنزهات وفواكه ورياحين ومجاري مياه وما إلى ذلك من ظواهر الحياة المدنية[2]

أما بعد التطور البيئة الساذجة العربية إلى المدنية الجديدة الصخبة فلجأ الناس إلى أحضان الطبيعة؛ لأنهم اعتادوا العيش الواسع والطلق وأخذوا بوصف الطبيعة والحياة فيه.

«و في هذا الانتقال من الواقع إلى الخيال لا يهربون من الوجود بل يزحزحون غشاء الزيف عن وجهه ويندمجون في الحياة الطبيعية ساعات؛ هي ساعات الاستجمام والاستلهام. إن شعراء المهجر تفوقوا في شعر الحنين. ولو حللنا أسباب الحنين الذي تدفق من قلبهم على شعرهم لوجدنا أن افتقادهم جماليات الطبيعة التي خلفوها وراءهم في لبنانهم. هو العامل الأول، وشعرنا شعورا أكيدا بأن قصائد الحنين التي نظموها، تهز الوجدان برهافتها[3].

1- أنيس الخوري الاتجاهات الأدبية المرجع. ص:349

2- المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

3- جورج صيدح: أدينا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية. دار العلم للملايين، دط، دت، ص:207

لكن الطبيعة في الأدب الحديث «حيويّة» عاقلة يحسّ بضربات فؤادها ويسمع رخيم إنشادها، ويلذّ له التحدث إلى أنهارها وغاباتها وجبالها ووهادها. فهذا باب في مناجاة الطبيعة لم يطرقه القدماء كما طرقه المحدثون، وهو يدور كما ترى على تأمل فيها عميق ووصف ها مقصود لذاته ل السواه[1]

وقد لجأ الشعراء في المهجر إلى الطبيعة عبر أشعارهم عن حياتهم الساذجة وبعدهم عن الحياة الصعبة المدنية.

إنَّ أدباءَ المهجر جميعَهم مِنْ أخلص أبناء الطبيعة وعشاقها، فهم عميقو الإحساس بها عميقو الحب لها، والاتصال بها، فيرون في كل ما فيها أشياء حية؛ إنها تحب و تكره وتسعد وتشقى وتفرح وتحزن وترجو وتخيب، وهم لذلك يناجونها ويستلهمون منها ويتمثلون بها ويبثونها آمال قلوبهم وآلامها، وأشواق نفوسهم وحيرتها[2].

ولعل أكثر شعراء الرابطة القلمية إيمانا بالنزعة الإنسانية التي تتجلى في مظاهر الطبيعة المختلفة الشاعر إيليا أبو ماضي، حيث نراه يتأمل الطبيعة، ويطيل التأمل، ويتتبع كل ظاهرة فيها فيخرج من تأمله وتتبعه، بدروس في المنفعة وحب الخير قد لا تجود بها عليه سوى الطبيعة نفسها، يعجبه في هذه الطبيعة أنها لا تفرق بين غني أو فقير ولا بين خير أو شر فنجومها تضيء في الليل وترشد بضوئها كمن ضل الطريق سواء أكان بائسا متحسرا أم هانئا مسرورا، والنهر يبذل ماءه للجميع لا يبتغي على بذله جزاء ولاشكوراً[3].

وأبرز لوازم هذه النزعة في شعرية إيليا أبي ماضي تتمثل تبقى في مظاهر الطبيعة من ماء وزهر وشجر وطير تجتمع لتجيب عن تساؤله الأبدي حول ماهية الوجود. وهو سؤاله الذي يطرحه في دواوينه دائما، ويستنتج حكمه ونظرياته من مظاهر الطبيعة المختلفة.

فقد ذهب يطلب السعادة عند الطبيعة، عند الفجر والدجى والنجوم والبحر، وهو يتأمل الطبيعة ويدرس مظاهرها ويتتبع أسرارها، شأنه شأن شعراء الرابطة القلمية كلهم، فيخرج من دراسته وتأملاته بمقارنات ومقابلات وحكم شتى، أهمها أن الطبيعة صالحة تنفع الجميع وتقدم النفع للكل دون أن تسأل، وهي لا تفرق في تقديم نفعها بين غني وفقير، وكريم

1- أنيس الخوري المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. ص:351

2- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر. دار المعارف. مصر، ط:1، 2003م، ص:270

3- نادرة جميل السراج: شعراء الرابطة القلمية. ص:155

وبخيل، وصالح وطالح، فيا ليت الناس يقلدون الطبيعة في هذا العمل على الأقل، هذه النغمة التى ظل يضرب عليها إيليا في كثير من مقطوعاته وقصائده: النفع للجميع ومن دون تمييز أو تخيير[1]

فالشاعر الحق هو من يتأمل في الطبيعة في جوانبها كلها، ليصل إلى كنه الحقيقة في الحياة والموجودات والوجود. والطبيعة في رأي الشاعر إيليا أبي ماضي هي مصداق لكل ما يكونن في الحياة من الشر والخير، والطبيعة هي الملجأ الآمن لتأملات الشاعر.

- **خلاصة:**

نستطيع أنْ نجزم أخيرا أن ما تعرضنا له، هو أحد أهم معالم الشعر الحديث، ومادة النقد الدسمة التي احتار فيها النقاد، فإيليا أبو ماضي طوب بفلسفته وحكمته وعبقرية عباراته ونظرياته، طوب نفسه قديس الشعر، والمغامر الذي جعل الشعر رسالةً فلسفية، وكسر جماد الشعر القديم وكيفه مع الحداثة، في مزيجٍ حضاري بين الغرب والشرق. كما نجزم أن أبو ماضي، هو شاعر القضية، قضية الوطن والجمال والثورة الاجتماعية والحب[2].

1- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر. ص:191

2-انظر: موقع الأستاذ سليم مزهود: http://salimprof.hooxs.com/t1407-topic

الفصل الثاني:

خصائص التركيب اللغوي في قصيدة الطلاسم

- **المبحث الأول؛ تعريف قصيدة الطلاسم ودلالاتها:**

أثارت قصيدة (الطلاسم) الكثير من الحبر وحفزت شهية كثير من النقاد والأدباء العرب لتناولها، كما باتت أشبه بالمعلقة الحديثة أو الثامنة التي تضاف إلى المعلقات السبع المعروفة في الشعر العربي القديم من فرط معرفتها من قِبَلِ العامة قَبْلِ الخاصة وبسبب ما تطرحه من رأي ورؤيا، إلى درجة صارت فيها أغنية للمطربين المشهورين.

تعود هذه القصيدة إلى الديوان الثالث (الجداول) أي إلى سنة 1927م، وهي بذلك لها من العمر 89 عاماً ولا تزال تحظى بحضور واهتمام من قبل الأجيال المتعاقبة.

وتعتبر قصيدة الطلاسم من أطول القصائد في الديوان بحيث تشغل مساحة 40 صفحة من الديوان. أما في بنيتها العامة والشكلية فتتكون من نحو 340 سطرا شعريا وتتوزع على سبعة أقسام هي على النحو الآتي:

- ❖ مقدمة.
- ❖ البحر.
- ❖ في الدير.
- ❖ بين المقابر.
- ❖ القصر والكوخ.
- ❖ الفكر.
- ❖ صراع وعراك.

وكل قسم من هذه الأقسام يتكون من عدد من مقاطع تدور حول فكرة معينة أو مجموعة من الأفكار تتواتر وتتوالد لتنتهي إلى فكرة عامة وهي عدم اليقين فكريا وفلسفيا.

أما القصيدة بتفاصيلها وبتمامها فتمثل عدداً من الأسئلة الفلسفية حول الوجود وحول الحياة وكيف بدأت وإلى أين تسير وماذا ستكون النهاية ومن أين جاء البشر. وهي أسئلة أنطولوجية محيرة منذ آماد بعيدة، وقد أرقت الفلاسفة والشعراء والمفكرين وهاهي تؤرق شاعرنا الكبير أبو ماضي. لكنه لا يستطيع لها جواباً إلا في اللازمة لست أدري التي ينهي بها تساؤلاته الممضة للعقل والقلب. هذه اللازمة (لست أدري) التي تعني على الصعيد الفلسفي تعليق الجواب أو اللاأدرية الفلسفية.

إنها قصيدة مفعمة بالحيوية والنقد والشك في كل شيء، في مبدأ الوجود، وفي نهاية الوجود، وما بينهما وحتى في الإجابة الدينية.

أما على الصعيد الفني فهي ليست من أقوى القصائد لدى أبي ماضي، لكن أهميتها تكمن في موضوعها وأسلوبها الحواري الممتع، وكأنه حوار بين الشاعر وطرف آخر هو الطبيعة تارة والإله تارة أخرى أو شخص في حالة ثالثة.

- **موضوع قصيدة الطلاسم:**

أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ المتلقي هو عنوانها المثير (الطلاسم) أي الأحجية أو اللغز المستغلق الذي يصعب فكّه أو الإجابة عنه بشكل نهائي وجازم. يلي العنوان مقدمة القصيدة وتتكون من خمسة مقاطع تدور حول عدم معرفتنا من أين جئنا إلى هذه الحياة، إلا أننا جئنا على أية حال، ولكن كيف حدث ذلك؟ والجواب: لست أدري. يقول:

جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئتُ؟ كيف أبصرت طريقي؟

لستُ أدري

بينما يتساءل المقطع الثاني من مقدمة القصيدة حول القدم والحدوث، وحول التسيير والتخيير.

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود

هل أنا حر طليق أم أسير في قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود

أتمنى أنني أدري ولكن...

لستُ أدري

وهكذا تتوالى الأسئلة من رحم بعضها البعض على هيئة تأمل وحوار، وفي كل مرة يختم بالجواب الذي يزيد تأكيدا لهذه الحيرة والغموض إذ يختم في آخر المقطع بلازمة: لستُ أدري. فالجواب غير معروف بالنسبة إليه.

ثم تستمر القصيدة في القسم الثاني وهو بعنوان (البحر) في إعطاء احتمال إجابة لكنها ليست إجابة مؤكدة، حيث يتكون هذا القسم من اثني عشر مقطعا تدور كلها حول علاقة الخلق والوجود بالبحر الذي قد يكون مصدرا لهذه الحياة برغم اختلاف مظاهر الحياة في علاقتها بالبحر ومائه أو اختلاف البحر في تمظهراته الحياتية.

ففي المقطع الأول من هذا القسم نجد أسئلة ومحاولات استنطاق البحر لكن دونما الإجابة عنها. يقول:

قد سألت البحر يوماً هل أنا يا بحرُ منك؟
أصحيح ما رواه بعضهم عني وعنكا؟
أم ترى ما زعموا زوراً وبهتاناً وإفكا؟
ضحكت أمواجه مني وقالت:
لستُ أدري

وفي المقطع الثاني تدور التأملات الحوارية حول عمر البحر وعلاقاته بالشاطئ والأنهار والأمواج وأيّهم البدء وأيّهم النهاية والإجابة بطبيعة الحال: لستُ أدري. يقول:

أيها البحر أتدري كم مضت ألف عليكا
وهل الشاطئ يدري أنه جاث لديكا
وهل الأنهار تدري أنها منك إليكا
ما الذي الأمواج قالت حين ثارت؟
لستُ أدري

ويستمر الحوار بين الشاعر والبحر في المقطع الثالث حول البحر نفسه بأنه على الرغم من عظمته إلا أنه أسير أسوة بالإنسان. إنهما أسيران وإنّ حاله كحال الإنسان حيث لا خيار له. يقول:

أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك
أنت مثلي أيها الجبار لا تملك أمرك
أشبهتْ حالك حالي وحكى عذريَ عذرك
فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟
لستُ أدري

وتأخذ بقية المقاطع في تصوير العلاقة بين السحب والبحر والشجر والثمر والمطر وعن علاقة البحر بما فيه من درر وما يدور في باطنه من حرب لا هوادة فيها بين الكائنات الصغيرة والكائنات الكبيرة وقد جمعت بين الحياة والموت في الوقت نفسه. يقول:

قد جمعتَ الموتَ في صدرك والعيشَ الجميلَ
ليت شعري أنت مهد أم ضريح؟
لستُ ادري

ولا تقف العلاقة بين الوجود والبحر عند هذا الحد بل تشمل أشياء كثيرة من بينها أنه المكان الأنسب الذي جمع المحبين ليقضوا أجمل الساعات على شواطئه وفي مقدمتهم قيس وليلى. وأيضا العديد من الملوك الذين استمتعوا بمنظره فمضوا مع مضي الأيام وبقي البحر على حاله. لكن الشاعر في حديثه إلى البحر بالرغم من مهابته التي يحظى بها يأبى إلا أن يوجه أسئلته إليه قائلاً:

فيك مثلي أيها الجبار أصداف ورملُ
إنما أنت بلا ظلٍ ولي في الأرضِ ظلُ
إنما أنت بلا عقلٍ ولي يا بحر عقلُ
فلماذا يا ترى أمضي وتبقى؟
لستُ أدري

ويبقى الغموض قائما في علاقة الإنسان بالبحر فكلما ازداد المرء اقترابا منه كلما ازداد ابتعادا. يقول:

ولذا أزداد ابتعادا كلما ازددت اقترابا
وأراني كلما أوشكت أدري
لستُ أدري

وفي المقطع الأخير من هذا القسم يصل الشاعر إلى قناعة تتمثل في أن كليهما؛ أي الإنسان والبحر متشابهان من حيث إنهما مؤطران بالزمن ومحكومان به. بالأمس الذي مضى والغد المجهول فهما في حال واحدة.

أما بالنسبة للقسم الثالث من الطلاسم الذي يحمل عنوان (في الدير) ويتكون من تسعة مقاطع تدور كلها حول رجال الدين وإجاباتهم التي لا تشفي العليل ولا تروي الغليل وهو يشير إلى ذلك في المقطع السادس من هذا القسم. يقول:

قد دخلت الدير استنطق فيه الناسكينا
فإذا القومُ من الحيرة مثلي باهتونا
غلب اليأس عليهم فهمُ مستسلمونا
وإذا الباب مكتوب عليه
لستُ أدري

ثم يتساءل في المقطع السابع عن مدى جدوى إجابات رجال الدين البعيدة عن الحياة والتي هي أشبه بالقفر أو البحث في المكان البلقع:

عجبا للناسك القانت وهو اللوذعي
هجرَ الناس وفيهم كل حسْنِ المبدع
ومضى يبحثُ عنه في المكان البلقع
أرأى في القفرِ ماءً أم سرابا؟
لستُ أدري

أما في القسم الرابع من الطلاسم وهو بعنوان (بين المقابر) فيتضمن جملة من الأسئلة المؤرقة المتعلقة بالموت والحياة والثواب والعقاب وجدوى تساوي الكل أمام جبروت الموت الصالح والطالح، وكذلك طبيعة الموت هل هي رقاد طويل يلحقه صحو طويل، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يبقى صحوُنَا الجميل مستمرا، ولماذا لا يعرف أحدنا متى ساعة الرحيل. وإذا كان الموت يمثل هجوعا حقا فلماذا نعشق النوم نرنو إليه، في حين ننأى بأنفسنا عن الموت. هل من وراء ذلك حكمة، أم أن هناك عالمًا آخرُ؟ فيتساءل قائلا:

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور
فحياة فخلود أم فناء فدثور
أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور
أصحيح أن بعض الناس يدري؟
لستُ أدري

وتتوالى الأسئلة في بقية المقاطع حول البعث وحول طبيعته هل هو جسماني أم روحاني وهل نبعث أطفالا أم كهولاً؟ لكنه في المقطع الأخير، في النهاية يصل إلى إجابة أشبه بنكران الآتي من خلال قوله:

يا صديقي لا تعللني بتمزيق الستور
بعدما أقضي، فعقلي لا يبالي بالقشورِ
إنْ أكن في حالة الإدراك لا أدري مصيري
كيف أدري بعدما أفقد رشدي؟
لستُ أدري

وتستمر المحاورة في بقية أقسام القصيدة حيث نتعرف في القسم السادس من الطلاسم وهو بعنوان (القصر والكوخ) على النهاية المأساوية سواء شيّدنا قصورا أو سكنا أكواخا.

وفي القسم السابع (الفكر) يتوجه الشاعر إلى الاستفسار عن تلك العلاقة بيننا وبين أفكارنا؛ هل هي أفكارنا حقا أم أفكار غيرنا تلبَّسَتْنَا وقد سبق أنْ تلبست غيرنا ومن سبقنا وستتلبس من بعدنا. يقول:

أتراه سائحا في الأرض من نفسٍ لأخرى
رابه منيَ أمرٌ فأبى أن يستقرا
أم تراه مرّ في نفسي كما أعبر جسرا
هل رأته قبل نفسي غيرُ نفسي؟
لستُ أدري

وأما القسم الأخير في القصيدة فعنوانه: (صراع وعراك)؛ وفيه تتبلور رؤية الشاعر من خلال إبراز المتناقضات في النفس الإنسانية والوجود وفي ما يحيط بنا من أشياء. ففي المقطع الأول من هذا القسم يصور الصراع والعراك النفسي قائلا:

إنني أشهد في نفسي صراعاً وعراكا
وأرى ذاتي شيطاناً وأحياناً ملاكا
هل أنا شخصان يأبى ذاك مع هذا اشتراكا
أم تراني واهماً فيما أراه؟
لستُ أدري

ويحتدم الصراع بين الغنى والجذب بين ضحكات الطفولة وأحلامها وكيف تبخرت تلك الأحلام عندما نكبر وتصبح وراءنا. كيف تتناوشنا الأمزجة المتناقضة بين صباح ومساء بين حزن وانبساط. كيف نهرب من الأشياء ثم لا نلبث أن نشتهيها عندما تغيب؟

لماذا يتناقض الناس في سلوكهم وفي آرائهم وفي مواقفهم من كل شيء. لماذا قبيح هذا جميل عند ذاك في حين أنه وهم عند الثالث. هل من سبب في ذلك. لماذا نتعب في كثير من الأحيان ويذهب تعبنا أدراج الرياح أو يأخذه من لا يستحقه، لكن الشاعر يجهل الإجابة عنها، يقول:

أتراني كنت يوماً نغماً في وتر
أم تراني كنت قبلاً موجة في نهر
أم تراني كنت في إحدى النجوم الزهر
أم أريجاً أم حفيفاً أم نسيما؟
لستُ أدري

وبعد أنْ قارن بين ذاته وواقع الموجودات يصل إلى الخاتمة في المقطعين الأخيرين من القصيدة:

أنا لا أذكر شيئاً من حياتي الماضية
أنا لا أذكر شيئاً من حياتي الآتية
ليَ ذاتٌ غير أني لست أدري ماهيه
فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي؟
لستُ أدري
إنني جئت وأمضي ، وأنا لا أعلمُ
أنا لغز، وذهابي كمجيئي طلسمُ
والذي أوجد هذا اللغز لغز مبهم،
لا تجادل .. ذا الحجى من قال إني
لستُ أدري

• المبحث الثاني؛ خصائص المقطع (لست أدري):

قصيدة الطلاسم هي عبارة عن مجموعة من التساؤلات فيها راح الشاعر يتأمل الكون والطبيعة والحياة. أنهى الشاعر تساؤلاته وفي كل مرة باللاأدرية؛ بعبارة: (لست ادري)؛ لذلك سمى بعض النقاد هذه القصيدة بقصيدة اللاأدرية لكثرة تكرار كلمة لست أدري.

هذه القصيدة هي القصيدة التي لا جدوى منها أبدا لاعتماد الشاعر المكثف وعلى امتداد القصيدة على الألغاز والأسرار التي لا جواب لها .

ويأتي ميخائيل نعيمة بقصيدته (أخي)[1]، ذات العنوان التكراري الذي ينتشر في رؤوس الرباعيات الخمسة، وهو نداء عنواني يهز المتلقي وفيه يبعث روح الأخوة الإنسانية، وهي روح يبكيها الشاعر الكبير ميخائيل في عصر تهاوت قيم المودة وحلت حروب مدمرة نخرت جسم البشرية؛ عصر هدّم المُثُل رغم صراخه التقني والمادي الباهر الذي يعج بشكل يغري ومضمون لا يطَمئِن بخير، مادام شكلاً لا يعمل بالروحية البريئة، وتكرار المكون البياني في لفظ (أخي) إشعاع أسلوبي يؤدي وظيفة دلالية وإيقاعية « نفس مرسل وموسيقى متصلة فالمقطوعة وحدة تمهد لخاتمتها، وفي هذا ما يشبع النّفس»[2]

• شرح مضمون الطلاسم، بحرها وأهم أغراضها الشعرية:

في المقطع الأول من الطلاسم يتحدث الشاعر عن حيرته من حيث النشأة والخلق. وأما في المقطع الثاني فيتساءل عن كونه هل هو مخير أم مسير، ويشير إلى موضوع تناسخ الأرواح.

أما في المقطع الثالث فيشير إلى موقفه من الزمن, وتحديد عمره من المحرك في السير: (أنا أو الطرق أو الزمن)

وأما في المقطع الرابع فيشير إلى ما قبل خلقه (عالم الغيب) هل كان سيرضى بمستقبله أم حاضره ؟!

1-انظر: عبد الجبار بجاي الزهوي: طلاسم يليا أبي ماضي وملحمة العلامة عبد الحميد السماوي. دار الينابيع طباعة ونشر وتوزيع، سورية، دمشق، ط:1 ، 2009، ص:102

2-انظر: المرجع نفسه. الصفحة نفسها

أما في المقطع الخامس والأخير فيكرر الشاعر ما سبق من فكرة في الفقرة الأولى كونه لغزا مبهما قبل خلقه.

وتعد الطلاسم ملحمة فكرية شعرية بنيت على شكل رباعيات معروضة على بحر الرمل وهو مناسب في سرعته وإيقاعه مع طبيعة نفس الشاعر الذي كان قلقا ومضطربا من حيرته أمام استثهامات الكون والحياة التي واجهته واستسلم أمامها بجواب يتكرر في الرباعيات دائما: (لست ادري)[1] .

وضمت هذه القصيدة إحدى وسبعين رباعية، احتوت على ثنائيات مثل: الخلق والمعاد النسك والكفر، العلم والجهل، الموت والحياة.

ولم يهتدِ الشاعر في هذه القصيدة إلى جواب كاف ومقنع إلا أننا نجد في القصيدة بكامل أبياتها تفاؤلا بالحياة وتعلقا بها واستمتاعا بحاضرها، فالدنيا جميلة، وهذا المجال لا يراه حقا إلا الجميل، أما القبيح نفسا فإنه يخلع القبح على كل ما حوله، لهذا فقد دعا الشاعر إلى أن نتقبل الحياة بما فيها من مقادير الخير والشر، وأن نتمتع بالحسن فيها إلى أقصى حد"[2]

لكن الشيء الذي يجعل الشاعر محتارا هو عالم الغيب وسر الوجود والقديم والحديث يقول في الرباعية الثانية: (أجديدٌ... ولكن ... لست أدري)، فيتساءل عن حاله في هذا الكون، يقول هل كنت قديما أم بتُّ جديدا في هذا الوجود؟ هل أعيش بحريةٍ أم بقيودِ الأسر أمضي؟ هل أديرُ نفسي بنفسي أقودها أم إنّيمجرد تابع لا غير؟

هذه التساؤلات المتناقضة كلها تعبر عن النقيضين وههما التسيير والتخيير، فالإنسان بالدنيا مخيرُ بأشياء وبأخرى مسيّر، فيتطرق الشاعر من خلال تساؤلاته عن نفسه أهو مخيرٌ في هذا العالم أم مسير؟ يتساءل هل كان منذ الأزل في الدنيا أم هو جديد؟ هل كان مخيرا فاختار أن يكون قديما أم مسيرا وبات جديدا في دنياه؟ يتساءل أيضا هل يعيش بحرية وتخيير أم أنه مجرد مسير وهنالك من يتحكم به ويقوده؟

1-عبد الجبار بجاي الزهوي: طلاسم يليا أبي ماضي وملحمة العلامة عبد الحميد السماوي، ص:103

2- المرجع نفسه. ص:106

- **المبحث الثالث؛ الاستفهام في الطلاسم وأبرز أغراضه:**

إن الأسئلة والاستفهامات التي يطرحها الشاعر تعرب عن تخبطه بالحكم على نفسه في قضية وجوبها مسيرة أم مخيرة.

ويكثر الشاعر من الاستفهام في القصيدة، ومن أمثلة ذلك قوله:

- أم تراني كنت لا أدركُ شيئاً؟ (الرباعية الرابعة)
- لست أدري...ولماذا لست أدري؟ (الرباعية الخامسة)

الغرض من الاستفهام الأول هو التشديد على قضية التسيير والتخيير بشكل أو بآخر كذلك بالنسبة للاستفهام الثاني، فالغرض من الأول هو عرض شكوك الشاعر بعلمه ومعرفة ماضيه حول ماهية كونه في عالم الغيب هل هو دفين أم لا وشكوكه فهل سيبدو فيه يوما دفينا؟ وسيكون؟ أم لا يدري شيء؟

ويأتي الاستفهام الأول في نهاية الرباعية يختمها بتركِ بعضٍ من بصماتِ الشبهات حول حقائق الشاعر، فبعد أن طرح بعضا من أسئلته واستفهاماته في المقطوعة حول ما كان عليه يوما يلجأ للتأكد هل يدري؟ أم لعله لا يعلم شيء؟ هذا السؤال يفيد التوكيد على قضية كونه أو عدمه في الوجود قبلا.

كذلك بالنسبة للاستفهام الثاني، الذي يقول فيه: "لست أدري.... ولماذا لست أدري؟" ففي هذا الاستفهام تظهر قمة الفلسفة لدى الشاعر، فبعد التساؤلات التي يطرحها كلها في الرباعيات كاملة وبالتحديد الرباعية الخامسة حول وجوده في هذا الكيان أو عدمه، هل كان موجدا يوما أم من الأزل قد أتى؟ وإذا كان كذلك فقديمُ هو أم جديد؟ وإذا أحدهما مسيرٌ هو أم مخير؟

لكل هذه التساؤلات يجيب لست أدري، ثم يتساءل لماذا لست أدري؟ فيجيب لست أدري!!

ويقحم الشاعر البحرَ في القصيدة؛ محاولا إدراج عناصر الطبيعة فيها حين لجوئه إلى البحر، ومثال ذلك قوله:

- قد سألت البحر يوماً هل إنا يا بحر منك؟
- أيها البحر هل تدري كم مضت ألفٌ عليك؟

ومن مزايا الشعر الحديث إقحام عناصر الطبيعة في القصائد لإضفاء الروح عليها والاستعانة بها لعديد من الأغراض.

لقد استعان الشاعر بالبحر ليبرر تخبطاته في الحياة ويعكس نفسه معزيا إياها به .

ويستشهد الشاعر بالبحر ويتقدم إليه بفائض تساؤلاته حتى تجيبه أمواجه بتخبطها أيضا تقول لست أدري، وفي كل مرة يطرح بها الشاعر اضطراباته أمام البحر تجبه الأمواج والرياح بالجواب: لست أدري.

إن استعانة الشاعر بالبحر في هذه القصيدة جاء ليعرب عن شبهٍ يود الشاعر مزجه بين نفسه وبين البحر، فهو مثله كما يقول أسير هذا الوجود، رونقهُ صافٍ هادئ لكن كما فيه من الحلو أصداف لديه الرمال على شواطئه وكما السكون في قعره أسماك صغيرة لديه من الحيتان كبار تفترسها، وأحيانا أخرى يعاود الشاعر إظهار النفس البشرية على أنها تختلف عن البحر إذ يقول إن للإنسان ظلا بينما للبحر لا، وإنَّ للإنسان عقلا ولكن البحر فلا يوجد.

والبحر عبارة عن الأفكار والتشويشات والاضطرابات والتخبطات التي تدور في نفسية الشاعر

- **البحر:**

في المقطع الأول يجد الشاعر شريكا له في أفكاره وخواطره ؛ وهو بذلك يشير إلى أصل الإنسان من البحر؛ وأصل الإنسان هو عبارة عن خلية مفردة عاشت في البحر وراحت تتطور.

وفي المقطع الثاني يتحدث الشاعر عن ثورة البحر وهيجانه، ثم راح يعبر عن أفكاره التي تشبه أفكار البحر

وفي المقطع الثالث يشير الشاعر فيه إلى سر الإنسان على أنه مقيد مثلما البحر كذلك.

وفي المقطع الرابع يتحدث الشاعر عن دورة الحياة في الطبيعة: البحر يرسل الغيوم فيسقي الأرض والشجر، إذ نحن عندما نأكل الثمر فكأنما نأكله. ونحن عندما نشرب مياه المطر فكأننا نشربه

وفي المقطع الخامس يتحدث الشاعر عن علاقة الأسباب بالمسببات؛ إذ إنها علاقة مشتركة بين عناصر الطبيعة، ولكن لا أحد يعرف كيف كانت.

وفي المقطع السادس يتحدث الشاعر عن انقياد الحياة بظواهرها وأنواعها؛ فالقوي يأكل الضعيف، والله خلق الحياة ثم جعل الموت.

وفي المقطع السابع يتحدث الشاعر عن الصراع القائم بين الإنسان والطبيعة.
وفي المقطع الثامن يشير الشاعر إلى أنه كلما اقترب من الحل فإن الحل يبعد عنه.
وفي المقطع التاسع يتحدث الشاعر عن موقف الإنسان المجهول من الأمس والغد.

- **صراع وعراك:**

في المقطع الأول يشير الشاعر إلى أنه يشهد صراعا عنيفا في نفسه وفكره، إذ يخرج من هذا الصراع بانفصام في شخصيته.

في المقطع الثاني يشير الشاعر إلى تمزق قلبه في حيرة من يكون؟ هل هو روض (البستان) أم قفر قاحل ؟!

في المقطع الثالث يشير الشاعر إلى حقيقة الضياع الذي يشهده مع بيان تشتت أحلامه ومناه.

وفي المقطع الرابع يتحدث الشاعر عن وضاعة شأنه، وحيرته من أمره.

وفي المقطع الخامس يواصل الشاعر التعبير عن حيرته المتمثلة في خلق المخلوقات الأخرى وعلاقته بها .

وفي المقطع السادس يشير الشاعر إلى أنه لا يعرف ماضيه كما لا يدرك أبعاد مستقبله؛ فذاته مضطربة حائرة قلقة من حيث الماضي والحاضر والمستقبل.

وفي المقطع السابع والأخير يتحدث عن حقيقة كونه لغزا مبهما، فذهابه كمجيئه طلسم.

كما أن الذي أوجد هذا اللغز هو لغز مبهم أيضا؛ فالشاعر يضع لنا مع نهاية هذه القصيدة قفلا محكما على عقولنا وعلى قلوبنا كي نصل معه إلى (اللادرية).

• المبحث الرابع؛ الخصائص الأسلوبيّة والتركيبية في قصيدة الطلاسم:

• أولا؛ المستوى الأسلوبي:

تتماز قصيدة الطلاسم بتعدد عناوينها، فهي الطلاسم، وهي البحر وهي صراع وعراك، ويعتمد فيها الشاعر أسلوب النقاش والتحليل والتعليل، وهو بذلك يعتمد أسلوب البحث العلمي.

وتتمثل أبرز الخصائص الأسلوبية في القصيدة في ما يأتي:

1- **التكرار بأشكاله المختلفة:** من ذلك تكرار حرف (هل)، والتكرار اللفظي، لاسيما اللازمة (لست أدري) إضافة إلى تكرار الفكرة

2- **كثرة التساؤلات والاستفهام:** إذ إن القصيدة كلها عبارة عن تساؤلات في الغيبيات والوجودية والحيرة حول الخلق وعلاقته بما مضى وما يأتي وبمختف مظاهر الكون والحياة والمخلوقات جميعها.

3- **تنوع القافية:** يلحظ على امتداد القصيدة تنوع القوافي بهدف التوزيع الصوتي وإضفاء إيقاع موسيقي وتشويق القارئ.

4- **استخدام الجمل الفعلية:** يحلظ في القصيدة أن الجمل الفعلية مستعملة أكثر من الجمل الاسمية، لأن في القصيدة حركية واستمرارية غير منقطعة بين الماضي المجهول والمستقبل المجهول، وهذا من شأنه أن يشير إلى تطور الحدث من جهة ومن جهة أخرى إلى حال عدم الثبات عند الشاعر

5- **أسلوب التضمين:** يضمن الشاعر في قصيدة بعض الأفكار المأخوذة عن النظريات العلمية نحو نظرية داروين في التطور، وكذا يضمن في الطلاسم من أبياته في قصائد أخرى.

6- **التكرار واللازمة:** التكرار آلة بيانية ذات وظائف لا تقل أهمية عن الإيجاز؛ إلا أنه ملجأ فني يركز عليه المبدع ساعة إبلاغه الرسالة لما فيه من التقرير وإذاعة الإيقاع الوظيفي الفعال.

من أجل ذلك أبانت قصيدة الطلاسم الفعل الجمالي والإيقاعي الذي ينجم عن أسلوبية التكرار؛ متسجدا بشكل خاصة في عبارة اللاأدرية: (لستُ أدري)، إذ استلزمت هذه اللازمة في تشكّلها فيضا شعريا وأدبيا حتى غدت صورة خيالية يمكن تمثّلها.

إن التكرار في الشعر يقوي الوحدة والتمركز ويظهر في تناوب الحركة والسكون أو تكرُّر الشيء على أبعاد متساوية . وفي ترديد لفظ واحد أو معنى واحد وهو ترجيع البداية في النهاية، وترجيع النوتة الواحدة في الموسيقى، والعود المتواتر إلى شيء بعينه . والتكرار كثير الشيوع في الفن وقلَّ ما نجد أثرا فنيا لا تتكرر فيه أجزاء متقاربة أو متباعدة . ومنه الترجيع المتسق أو الإيقاع (ريتم Rythme)[1].

ثم إن الحديث عن التكرار لا يجعل من المكرر عمدة وحده دون ربطه بالنص في كليته؛ لذلك نجده تكرارا يؤثر في العنوان ودلالته وإكساب النص والخطاب انسجاما وتماسكا في بُناه بفضل التكرار لأنه الخيط الرفيع والروح الدرامية التي تحفظ تلك الخصيصات جميعا، بل ثمة علاقة وطيدة جدا بين ذلك الفعل البياني والمتلقي متفاعلا مع الرسالة.

- **ثانيا؛ المستوى التركيبي:**

تقوم البنية التركيبية للخطاب الأدبي على التركيب النحوي الذي ينبغي أن ينظر إليه في الشعر على أنه ذو فاعلية تؤدي جزءا من معنى القصيدة وجماليتها، وهو بذلك يتضافر مع باقي العناصر الأخرى (التركيب البلاغي) في تحقيق أدبية الخطاب الأدبي[2].

أ- **من خلال دراستنا لمصطلحات الدراسة يتضح الآتي:**

- نقوم البنية التركيبية للخطاب على التركيب النحوي الذي يؤدي إلى معنى القصيدة.
- اعتبار المستوى الدلالي علما قائما بذاته له خصائصه ومميزاته.
- تعد قصيدة الطلاسم ملحمة فكرية شعرية ضمت إحدى وسبعين رباعية، لم يهتدِ فيها الشاعر إلى جواب كافٍ ومقنع.

1- روز غريب: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي. دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1993، ص:26

2- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري استراتجية التناص. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992م ص:70.

ب-من خلال دراستنا للبنية التركيبية يتضح الآتي:

- أن الجملة العربية من أهم الموضوعات التي يجب على دارس العربية الإلمام بها لانطلاقه إلى موضوعات النحو الأخرى.

- اختلف النحاة القدماء في نظرهم إلى الجملة فمنهم من جعلها والكلام مصطلحين يطلقان على مدلول واحد ومنهم من فرق بينهم.

- وظف الشاعر التراكيب الفعلية أكثر من الاسمية وهي ترتبط برؤية الشاعر الخاصة، والحالات النفسية وسياقات عامة يتشكل من خلالها الخطاب.

- يوظف الشاعر أنواع الحروف بمعانيها، حسب ما يستدعيه الغرض العام وهو التعبير عن الحيرة ومن ذلك توظيفه (رب) التي هي حرف جر شبيه بالزائد تفيد الشك والاحتمال، يقول الشاعر:

ربّ فكر لاح في لوحة نفسي وتجلّى
خلته منّي ولكن لم يقم حتّى تولّى
مثل طيف لاح في بئر قليلا واضمحّلا
كيف وافى ولماذا فرّ منّي؟
لست أدري!

- في الجملة الخبرية المؤكدة نلاحظ أن الشاعر استعملها بغرض التأكيد وتقرير المعاني فنجده استخدم التوكيد بـ(إنّ) في تسع وعشرين موضعا ثم يليه استخدامه التوكيد بـ(قد) التي تفيد التحقيق والتوكيد في (22) موضعا في حين استخدم التوكيد بالقصر ثماني مرات والتوكيد اللفظي عشر مرات لإثبات الشيء ونفيه، واستعمل (كم) الخبرية في مواضع عديدة منها قوله:

كم فتاةٍ مثل ليلى وفتى كابن الملوح
أنفقا السّاعات في الشّاطىء، تشكو وهو يشرح
كلّما حدّث أصغت وإذا قالت ترنّح
أخفيف الموج سرّ ضيّعاه؟..
لست أدري!

كم ملوكٍ ضربوا حولك في اللّيل القبابا
طلع الصّبح ولكن لم نجد إلاّ الضّبابا
ألهم يا بحر يوما رجعة أم لا مآبا
أم هم في الرّمل؟ قال الرّمل إني...
لست أدري!

– كما استخدم أسلوب النفي بمختلف أدواته وعادة ما يربط هذا النفي بأسلوب الإثبات والنفي لديه يخلق حالة من التوتر؛ حيث أورد الشاعر الجملة المنفية بـ(لا) في (33) موضعا ثم يليه النفي بالأداة (ما) في (16) موضعا ثم الأداة (لم) التي استخدمها للنفي سبع مرات ثم النفي بـ(لن) مرة واحدة. إن الجملة الخبرية المنفية متقاربة حضورا مع الجملة المؤكدة، إذْ بلغت في الأولى (سبعا وخمسين) موضعا وفي الأخيرة (سبعا وستين) موضعا.

– أكثر ما ورد في الأسلوب الإنشائي صيغ الاستفهام والنداء التي شاعت في القصيدة، وتوظيف تلك الصيغ هو بغرض التعبير عن الحالات الوجدانية والنفسية للشاعر كما تعبر تلك الصيغ عن رؤية الشاعر في الذات الإنسانية والحياة وارتباطه بهما

– استخدم الاستفهام بالهمزة في (32) موضعا يليه الاستفهام بحرف الاستفهام (هل) واستعمل الاستفهام بـ(كيف) (12) مرة بالإضافة إلى (ما) التي استخدمها (10) مرات ثم (من) و(لماذا) في (4) مواضع لتأتي متى (3 مرات) و(أين) في (08) مواضع.

– جاء النداء أقل درجة من الاستفهام حيث استخدم النداء في (21) مرة بينما الاستفهام بلغ 108 موضع مما يعكس حيرة الشاعر لأن الاستفهام أنسب في التعبير عنها.

الخاتمة

• الخاتمة:

يعد الشاعر إيليا أبو ماضي بحق شاعر الطبيعة والتأمل، ينطلق من عناصرها في صياغته تجربته الشعرية والشعورية يريد فهم كنه الحقيقة في الوجود، فتصيبه الحيرة فيؤسس لها ويرضى بها مندمجا مع تلك الطبيعة التي يراها أمَّه وأم بني الإنسان جميعا، فهي الملجأ الآمن لتأملات الشاعر.

ومن هنا تبرز قصيدة الطلاسم معبّرةً عن تلك الحيرة، ومبرزة عظيم الدور الذي تؤديه الطبيعة بعناصرها في تشكيل فكر إيليا أبي ماضي وشعريته، بل في التعبير عن أغوار نفسه وحيرته، فهي أبرز العوامل التي أسهمت في تشكيل وجدان إيليا أبي ماضي الشعري، إضافة إلى الظروف الاجتماعية السيئة وحال الفقر في صغره وظروف العالم العربي السياسية تحت وطأة الاحتلال العثماني، ثم الهجرة والاغتراب التي منحته فرصة الاختلاط بالنخب وعلى رأسها جبران خليل جبران.

لقد أثارت قصيدة (الطلاسم) شهية النقاد والأدباء بين محلل باحث عن أسرارها متفهما لحيرة الشاعر، وبين رافض إياها من منطلق دينه وقيمه. إلا أنها رغم هذا وذاك قد أثبتت حضورها السحري في جماليات التلقي فكأنها معلقة من المعلقات الشعرية بشكل معاصر حديث، موضوعها يثير الاهتمام فهو عبارة عن لغز أو أحجية يستعصي حلّها مستمرا في استعصائه، إذ يطرح تساؤلات عن الكون الوجود دون إعطاء حل، بل إن الحل في اللاأدرية.

أما الجانب اللغوي فإن أبرز الخصائص الأسلوبية في قصيدة الطلاسم تتمثل في ما يأتي:

1- التكرار بأشكاله المختلفة الذي عمل على تثبيت حيرة الشاعر.

2- كثرة التساؤلات والاستفهام في الغيبيات والوجودية التي نقلت حيرة الشاعر إلى المتلقي، ولكنه حيرة مستمرة يمكن أن تصير دعوة جديدة إلى زيادة التأمل والبحث. ويكفي أنها أثارت أقلام النقاد والمتتبعين وشدت انتباههم فهي إما تزيد في حيرة المتلقي وإما تجعله مجادلا رافضا هذه الحيرة ليزيد إيمانه بالهدف من خلقه، أو إنها تثير عقل المتلقي في البحث عن الحقيقة.

3- تنوع القافية بهدف التوزيع الصوتي وإضفاء إيقاع موسيقي وتشويق المتلقي.

4- الإكثار من توظيف الجمل الفعلية لأنها الأنسب لحركية الكون واستمراريته، بل استمرارية الحيرة في كنهه بما يتضمنه من موجودات انطلاقا من ذات الشاعر، فالكل يسير ويبقى سائر، ولكنه السير إلى المجهول، والانطلاق قد كان أيضا من المجهول.

5- التكرار واللازمة التي توفرت في القصيدة هي آلة بيانية وظيفية، تذيع الإيقاع الوظيفي الفعل، وتؤسس لحقيقة الجهل بالأشياء التي تحيط بالإنسان من كل مكان.

أما المستوى التركيبي لقصيدة الطلاسم فيتمثل في ما يأتي:

1-تعد قصيدة الطلاسم ملحمة فكرية شعرية وضمت إحدى وسبعين رباعية، لم يهتدِ الشاعر فيها إلى جواب مقنع.

2-اعتبار المستوى الدلالي علما قائما بذاته له خصائصه ومميزاته.

3-تقوم البنية التركيبية للخطاب الشعري على التركيب النحوي الذي يؤدي إلى معنى القصيدة، في استعمال حروف النفي وأسمائه، والأفعال المضارعة.

4-في الجملة الخبرية نلاحظ أن الشاعر ينوع في أساليبها فهي مؤكدة ليؤكد بها جهله بسر الخلق والوجود وسر الغيب، وهي منفية للأمر ذاته إذ ينفي علمه بتلك الأسرار.

5-يوظف الشاعر الأسلوب الإنشائي ويكاد يكون هو عمدة الطلاسم، لاسيما في توظيف الاستفهام والنداء للتعبير عن الحيرة المرتبطة برؤية الشاعر الوجودية.

لقد قدمنا بحثا حول قصيدة الطلاسم نستكشف أغوارها من جانب لغوي، ونفك أسرارها من جانب دلالي، ونوضح قبل ذلك كلها طبيعة مضمونها. فإن أخطأنا فمن أنفسنا، وإن أصبنا فمن الله تعالى الموفق عبادَهُ، ثم مساعدة أستاذنا المشرف سليم مزهود.

الملاحق

قصيدة الطلاسم

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!
أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود
هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنّى أنّني أدري ولكن...
لست أدري!
وطريقي، ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أأنا السّائر في الدّرب أم الدّرب يسير
أم كلانّا واقف والدّهر يجري؟
لست أدري!
ليت شعري وأنا عالم الغيب الأمين
أتراني كنت أدري أنّني فيه دفين
وبأنّي سوف أبدو وبأنّي سأكون
أم تراني كنت لا أدرك شيئا؟
لست أدري!

أتراني قبلما أصبحت إنسانا سويّا
أتراني كنت محوا أم تراني كنت شيّا
ألهذا اللّغو حلّ أم سيبقى أبديّا
لست أدري... ولماذا لست أدري؟
لست أدري!

- **البحر:**

قد سألت البحر يوما هل أنا يا بحر منكا؟
هل صحيح ما رواه بعضهم عني وعنكا؟
أم ترى ما زعموا زوار وبهتانا وإفكا؟
ضحكت أمواجه مني وقالت:
لست أدري!
أيّها البحر، أتدري كم مضت ألف عليكا
وهل الشّاطىء يدري أنّه جاث لديكا
وهل الأنهار تدري أنّها منك إليكا
ما الذّي الأمواج قالت حين ثارت؟
لست أدري!
أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك
أنت مثلي أيّها الجبار لا تملك أمرك
أشبهت حالك حالي وحكى عذري عذرك
فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟..
لست أدري!
ترسل السّحب فتسقي أرضنا والشّجرا
قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثّمرا
وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا
أصواب ما زعمنا أم ضلال؟
لست أدري!

قد سألت السّحب في الآفاق هل تذكر رملك
وسألت الشّجر المورق هل يعرف فضلك
وسألت الدّر في الأعناق هل تذكر أصلك
وكأنّي خلتها قالت جميعا:
لست أدري!
ترفض الموج وفي قاعك حرب لن تزولا
تخلق الأسماك لكن تخلق الحوت الأكولا
قد جمعت الموت في صدرك والعيش الجميلا
ليت شعري أنت مهد أم ضريح؟..
لست أدري!
كم فتاةٍ مثل ليلى وفتى كابن الملوح
أنفقا السّاعات في الشّاطىء، تشكو وهو يشرح
كلّما حدّث أصغت وإذا قالت ترنّح
أخفيف الموج سرّ ضيّعاه؟..
لست أدري!
كم ملوكٍ ضربوا حولك في اللّيل القبابا
طلع الصّبح ولكن لم نجد إلاّ الضّبابا
ألهم يا بحر يوما رجعة أم لا مآبا
أم هم في الرّمل؟ قال الرّمل إني...
لست أدري!
فيك مثلي أيّها الجبّار أصداف ورمل
إنّما أنت بلا ظلّ ولي في الأرض ظلّ
إنّما أنت بلا عقل ولي، يا بحر، عقل
فلماذا، يا ترى، أمضي وتبقى؟..
لست أدري!

يا كتاب الدّهر قل لي أَلَهُ قَبْلٌ وبَعْد
أنا كالزّورق فيه وهو بحر لا يجدّ
ليس لي قصد فهلل للدهر في سيري قصد
حبّذا العلم، ولكن كيف أدري؟..
لست أدري!
إنّ في صدري، يا بحر، لأسرارٍ عجابا
نزل السّتر عليها وأنا كنت الحجابا
ولذا أزداد بعدا كلّما ازددت اقترابا
وأراني كلّما أوشكت أدري...
لست أدري!
إنّني، يا بحر، بحر شاطئاه شاطئاكا
الغد المجهول والأمس اللّذان اكتنفاكا
وكلانا قطرة، يا بحر، في هذا وذاك
لا تسلني ما غد، ما أمس؟.. إني...
لست أدري!

- **الدير:**

قيل لي في الدّير قوم أدركوا سرّ الحياة
غير أنّي لم أجد غير عقول آسنات
وقلوب بليت فيها المنى فهي رفات
ما أنا أعمى فهل غيري أعمى؟..
لست أدري!
قيل أدرى النّاس بالأسرار سكّان الصوامع
قلت إن صحّ الذي قالوا فإن السرّ شائع
عجبا كيف ترى الشّمس عيون في البراقع
والتي لم تتبرقع لا تراها؟..
لست أدري!

إن تك العزلة نسكا وتقى فالذّئب راهب
وعرين اللّيث دير حبّه فرض وواجب
ليت شعري أيميت النّسك أم يحيي المواهب
كيف يمحو النّسك إثما وهو إثم؟..
لست أدري!
أنني أبصرت فيّ الدّير ورودا في سياج
قنعت بعد النّدى الطّاهر بالماء الأجاج
حولها النّور الذي يحيى وترضى بالديّاجي
أمن الحكمة قتل القلب صبرا؟..
لست أدري!
قد دخلت الدّير عند الفجر كالفجر الطّروب
وتركت الدّير عند اللّيل كاللّيل الغضوب
كان في نفسي كرب، صار في نفسي كروب
أمن الدّير أم اللّيل اكتئابي؟
لست أدري!
قد دخلت الدّير استنطق فيه الناسكينا
فإذا القوم من الحيرة مثلي باهتونا
غلب اليأس عليهم ، فهم مستسلمونا
وإذا بالباب مكتوب عليه...
لست أدري!
عجبا للنّاسك القانت وهو اللّوذعي
هجر النّاس وفيهم كلّ حسن المبدع
وغدا يبحث عنه المكان البلقع
أرأى في القفر ماء أم سرابا؟..
لست أدري!

كم تمارى، أيّها النّاسك، في الحق الصّريح
لو أراد اللّه أن لا تعشق الشّيء المليح
كان إذ سوّاك بلا عقل وروح
فالّذي تفعل إثم ... قال إني...
لست أدري!
أيّها الهارب إنّ العار في هذا الفرار
لا صلاح في الّذي تفعل حتّى للقفار
أنت جان أيّ جان ، قاتل في غير ثار
أفيرضى اللّه عن هذا ويعفو ؟..
لست أدري!

- **بين المقابر:**

ولقد قلت لنفسي، وأنا بين المقابر
هل رأيت الأمن والرّاحة إلاّ في الحفائر؟
فأشارت: فإذا للدّود عبث في المحاجر
ثم قالت :أيّها السّائل إني...
لست أدري!
انظري كيف تساوى الكلّ في هذا المكان
وتلاشى في بقايا العبد ربّ الصّولجان
والتقى العاشق والقالي فما يفترقان
أفبذا منتهى العدل؟ فقالت...
لست أدري!
إنّ يك الموت قصاصا، أيّ ذنب للطّهاره
وإذا كان ثوابا، أيّ فضل للدعاره
وإذا كان يوما وما فيه جزاء أو جساره
فَلِمَ الأسماء إثم أو صلاح؟..
لست أدري!

أيّها القبر تكلّم، وأخبرني يا رمام
هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام
من هو المائت من عام ومن مليون عام
أبصير الوقت في الأرماس محوا؟..
لست أدري!
إن يك الموت رقادا بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرّحيل؟
ومتى ينكشف السّرّ فيدري؟..
لست أدري!
إن يك الموت هجوعا يملأ النّفس سلاما
وانعتاقا لا اعتقالا وابتداء لا ختاما
فلماذا أعشق النّوم ولا أهوى الحماما
ولماذا تجزع الأرواح منه؟..
لست أدري!
أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور
فحياة فخلود أم فناء ودثور
أكلام النّاس صدق أم كلام الناس زور
أصحيح أنّ بعض الناس يدري؟..
لست أدري!
إن أكن أبعث بعد الموت جثمانا وعقلا
أترى أبعث بعضا أم ترى أبعث كلاّ
أترى أبعث طفلا أم ترى أبعث كهلا
ثمّ هل أعرف بعد الموت ذاتي؟..
لست أدري!

يا صديقي، لا تعللّني بتمزيق السّتور
بعدما أقضي فعقلي لا يبالي بالقشور
إن أكن في حالة الإدراك لا أدري مصيري
كيف أدري بعدما أفقد رشدي...
لست أدري!

- **القصر والكوخ:**

ولقد أبصرت قصرا شاهقا عالي القباب
قلت ما شادك من شادك إلاّ للخراب
أنت جزء منه لكن لست تدري كيف غاب
وهو لا يعلم ما تحوي؛ أيدري؟..
لست أدري!
يا مثالا كان وهما قبلما شاء البناة
أنت فكر من دماغ غيّبته الظلمات
أنت أمنية قلب أكلته الحشرات
أنت بانيك الّذي شادك لا ... لا...
لست أدري!
كم قصور خالها الباني ستبقى وتدوم
ثابتات كالرّواسي خالدات كالنّجوم
سحب الدّهر عليها ذيله فهي رسوم
مالنا نبني وما نبني لهدم؟..
لست أدري!
لم أجد في القصر شيئا ليس في الكوخ المهين
أنا في هذا وهذا عبد شك ويقين
وسجين الخالدين اللّيل والصّبح المبين
هل أنا في القصر أم في الكوخ أرقى؟
لست أدري!

ليس في الكوخ ولا في القصر من نفسي مهرب
أنّني أرجو وأخشى، إنّني أرضى وأغضب
كان ثوبي من حرير مذهب أو كان قنّب
فلماذا يتمنّى الثوب عاري؟..
لست أدري!
سائل الفجر: أعند الفجر طين ورخام؟
واسأل القصر ألا يخفيه، كالكوخ، الظّلام
واسأل الأنجم والرّيح وسل صوب الغمام
أترى الشّيء كما نحن نراه؟..
لست أدري!

- **الفكر:**

ربّ فكر لاح في لوحة نفسي وتجلّى
خلته منّي ولكن لم يقم حتّى تولّى
مثل طيف لاح في بئر قليلا واضمحّلا
كيف وافى ولماذا فرّ منّي؟
لست أدري!
أتراه سابحا في الأرض من نفس لأخرى
رابه مني أمر فأبى أن يستقرّا
أم تراه سرّ في نفسي كما أعبر جسرا
هل رأته قبل نفسي غير نفسي؟
لست أدري!
أم تراه بارقا حينا وتوارى
أم تراه كان مثل الطير في سجن فطارا
أم تراه انحلّ كالموجة في نفسي وغارا
فأنا أبحث عنه وهو فيها
لست أدري!

- **صراع وعراك:**

إنّني أشهد في نفسي صراعا وعراكا
وأرى ذاتي شيطانا وأحيانا ملاكا
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا
أم تراني واهما فيما أراه؟
لست أدري!
بينما قلبي يحكي في الضّحى إحدى الخمائل
فيه أزهار وأطيار تغني وجداول
أقبل العصر فأسى موحشا كالقفر قاحل
كيف صار القلب روضا ثمّ قفرا؟
لست أدري!
أين ضحكي وبكائي وأنا طفل صغير
أين جهلي ومراحي وأنا غضّ غرير
أين أحلامي وكانت كيفما سرت تسير
كلّها ضاعت ولكن كيف ضاعت؟
لست أدري!
لي إيمان ولكن لا كأيماني ونسكي
إنّني أبكي ولكن لا كما قد كنت أبكي
وأنا أضحك أحيانا ولكن أيّ ضحك
ليت شعري ما الذي بدّل أمري؟
لست أدري!
كلّ يوم لي شأن ، كلّ حين لي شعور
هل أنا اليوم أنا منذ ليال وشهور
أم أنا عند غروب الشمس غيري في البكور
كلّما ساءلت نفسي جاوبتني:
لست أدري!

ربّ أمر كنت لّما كان عندي أتّقيه
بتّ لّما غاب عنّي وتوارى أشتهيه
ما الّذي حبّبه عندي وما بغّضنيه
أأنا الشّخص الّذي أعرض عنه؟
لست أدري!
ربّ شخص عشت معه زمناألهو وأمرح
أو مكان مرّ دهر لي مسرى ومسرح
لاح لي في البعد أجلى منه في القرب وأوضح
كيف يبقى رسم شيء قد توارى؟
لست أدري!
ربّ بستان قضيت العمر أحمي شجره
ومنعت النّاس أن تقطف منه زهره
جاءت الأطيار في الفجر فناشت ثمره
ألأطيار السّما البستان أم لي؟
لست أدري!
رب قبح عند زيد هو حسن عند بكر
فهما ضدّان فيه وهو وهم عند عمرو
فمن الصّادق فيما يدّعيه ، ليت شعري
ولماذا ليس للحسن قياس؟
لست أدري!
قد رأيت الحسن ينسى مثلما تنسى العيوب
وطلوع الشّمس يرجى مثلما يرجى الغروب
ورأيت الشّر مثل الخير يمضي ويؤوب
فلماذا أحسب الشرّ دخيلا؟
لست أدري!

إنّ هذا الغيث يهمي حين يهمي مكرها
وزهور الأرض تفشي مجبرات عطرها
لا تطيق الأرض تخفي شوكها أو زهرها
لا تسل : أيّهما أشهى وأبهى؟
لست أدري!
قد يصير الشوك إكليلا لملك أو نبّي
ويصير الورد في عروة لص أو بغيّ
أيغار الشّوك في الحقل من الزّهر الجنّي
أم ترى يحسبه أحقر منه؟
لست أدري!
قد يقيني الخطر الشّوك الذي يجرح كفّي
ويكون السّمّ في العطر الّذي يملأ أنفي
إنّما الورد هو الأفضل في شرعي وعرفي
وهو شرع كلّه ظلم ولكن...
لست أدري!
قد رأيت الشّهب لا تدري لماذا تشرق
ورأيت السّحب لا تدري لماذا تغدق
ورأيت الغاب لا تدري لماذا تورق
فلماذا كلّها في الجهل مثلي؟
لست أدري!
كلّما أيقنت أني قد أمطت السّتر عني
وبلغت السّر سرّي ضحكت نفسي مني
قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم أجدني
فهل الجهل نعيم أم جحيم؟
لست أدري!

لذة عندي أن أسمع تغريد البلابل
وحفيف الورق الأخضر أو همس الجداول
وأرى الأنجم في الظلّماء تبدو كالمشاعل
أترى منها أم اللّذة منّي...
لست أدري!
أتراني كنت يوما نغما في وتر
أم تراني كنت قبلا موجة في نهر
أم تراني كنت في إحدى النّجوم الزّهر
أم أريجا، أم حفيفا، أم نسما؟
لست أدري!
فيّ مثل البحر أصداف ورمل ولآل
في كالأرض مروج وسفوح وجبال
فيّ كالجو نجوم وغيوم وظلال
هل أنا بحر وأرض وسماء؟
لست أدري!
من شرابي الشّهد والخمرة والماء الزّلال
من طعامي البقل والأثماروالّلحم الحلال
كم كيان قد تلاشى في كياني واستحال
كم كيان فيه شيء من كياني؟
لست أدري!
أأنا أفصح من عصفورة الوادي وأعذب؟
ومن الزّهرة أشهى ؟ وشذى الزّهرة أطيب؟
ومن الحيّة أدهى ؟ ومن النّملة أغرب؟
أم أنا أوضع من هذي وأدنى؟
لست أدري!

كلّها مثلي تحيا، كلّها مثلي تموت
ولها مثلي شراب، ولها مثلي قوت
وانتباه ورقاد، وحديث وسكوت
فيما أمتاز عنها ليت شعري؟
لست أدري!
قد رأيت النّمل يسعى مثلما أسعى لرزقي
وله في العيش أوطار وحق مثل حقي
قد تساوى صمته في نظر الدّهر ونطقي
فكلانا صائر يوما إلى ما...
لست أدري!
أنا كالصّهباء، لكن أنا صهباي ودّني
أصلها خاف كأصلي، سجنها طين كسجني
ويزاح الختم عنها مثلما ينشّق عني
وهي لا تفقه معناها، وإني...
لست أدري!
غلط القائل إنّ الخمر بنت الخابيه
فهي قبل الزق كانت في عروق الدّاليه
وحواها قبل رحن الكرم رحم الغاديه
إنّما من قبل هذا أين كانت؟
لست أدري!
هي في رأي فكر، وهي في عينّي نور
وهي في صدري آمال، وفي قلبي شعور
وهي في جسمي دم يسري فيه ويمور
إنّما من قبل هذا كيف كانت؟
لست أدري!

أنا لا أذكر شيئا من حياتي الماضية
أنا لا أعرف شيئا من حياتي الآتيهْ
لي ذات غير أني لست لِأَدْرِي مَاهِيَهْ
فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي؟
لست أدري!
إنّني جئت وأمضي وأنا لا أعلم
أنا لغز ... وذهابي كمجيتي طلسم
والّذي أوجد هذا اللّغز لغز أعظم
لا تجادل ذا الحجا من قال إنّي...
لست أدري!

المصادر والمراجع

• المصادر والمراجع:

1- **أبو ماضي** (إيليا): ديوان إيليا أبو ماضي. منشورات مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت لبنان، 2005م.

2- **برهومي** (خليل): إيليا أبوماضي شاعر السؤال والجمال، دار الكتب العلمية بيروت، ط:1، (دت).

3- **الخوري** (أنيس المقدسي): الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث. دار العلم للملايين، بيروت، ط:4، (دت).

4- **الزهوي** (عبد الجبار بجاي): طلاسم يليا أبي ماضي وملحمة العلامة عبد الحميد السماوي. دار الينابيع طباعة ونشر وتوزيع، سورية، دمشق، ط:1، 2009م.

5- **السراج** (نادرة جميل): شعراء الرابطة القلمية. دار المعارف، مصر، (دت)، (دط).

6- أبو **الشباب** (واصف): القديم والجديد في الشعر العربي الحديث. دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط:1، 1988م.

7- **صيدح** (جورج): أدينا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية. دار العلم للملايين، بيروت لبنان، (دط) (دت).

8- **ضيف** (شوقي): دراسات في الشعر العربي المعاصر. دار المعارف. مصر، ط:1 2003م.

9- **غريب** (روز): النقد الجمالي وأثره في النقد العربي. دار الفكر العربي، بيروت، لبنان 1993م.

10- **الفاخوري** (حنا): الجامع في تاريخ الأدب العربي،الأدب الحديث. دار الجيل للطبع، مصر، ط:1، 1986م.

11- **المعوش** (سالم): إيليا أبوماضي بين الشرق والغرب في رحلته التشرد والفلسفة والشاعرية. مؤسسة بحسون، بيروت، لبنان، 1997م.

12- **مفتاح** (محمد): تحليل الخطاب الشعري استراتجية التناص. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:3، 1992م.

13- **الهواري** (صلاح الدين): شعراء المهجر الشمالي. دار الهلال، لبنان، ط:1 2009م.

- **مواقع الكترونية:**

- موقع الأستاذ سليم مزهود: http://salimprof.hooxs.com/t1407-topic

الفهرس

- **فهرس الموضوعات:**

التبويب	الموضوع	الصفحة
- -	**شكر وتقدير. وإهداء**	- -
مقدمة	• **مقدمة**	**أ-ج**
الفصل الأول	• **إيليا أبو ماضي؛ فلسفته ونزعتُه التأملية**	**20-1**
المبحث الأول	حياة إيليا أبي ماضي	3-2
المبحث الثاني	العوامل المُسْهِمَة في تشكيل وجدان إيليا أبي ماضي الشعري	6-4
المبحث الثالث	فلسفة إيليا أبي ماضي ونزعته التأملية	19-7
الفصل الثاني	• **خصائص التركيب اللغوي في قصيدة الطلاسم**	**37-21**
المبحث الأول	– تعريف قصيدة الطلاسم ودلالاتها	29-22
المبحث الثاني	– خصائص المقطع (لست أدري)	31-30
المبحث الثالث	– الاستفهام في الطلاسم وأبرز أغراضه	34-32
المبحث الرابع	– الخصائص الأسلوبية والتركيبية في قصيدة الطلاسم	38-35
الخاتمة	• **الخاتمة**	**41-39**
الملاحق	• **قصيدة الطلاسم**	**57-42**
المراجع	• **المصادر والمراجع**	**60-58**
الفهرس	• **فهرس الموضوعات.**	**62-61**